دوجما

ملك أو كتابة

أنس القلا

قصص قصيرة

اسم الكتاب : دوجما .. ملك أو كتابة
اسم الكاتب : أنس القلا
رقم الإيداع :2017/10680
الترقيم الدولي 9789776527959
الطبعة الأولى : 2017
مراجعة لغوية، وإخراج داخلي : هيام فهيم
صادر عن : مؤسسة زحمة كُتَّاب للثقافة والنشر
15 ش السباق – مول الميريلاند – مصر الجديدة

www.za7ma-kotab.com

دار زحمة كتاب للنشر

za7ma-kotab@hotmail.com

01205100596

© جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة
لمؤسسة زحمة كُتَّاب للثقافة والنشر
المشهرة قانونًا بسجل تجاريّ رقم /84486

إهداء

إِلَى كلِّ مَنْ يُدرِكُون مَحبَّتِي لَهم.

إِلَى الكراهيةِ التي تُعزَفُ حَولَنا.

إِلَى الظُّلمِ الضَّاحِكِ في وُجُوهِنا.

إِلَى صَومعتِي المَهْجُورةِ منذ شُهورٍ ..
ومكتبتي التي نَخرَها السُّوسُ.

✍ .. أَنَس القَلّا

العشاء الأخير

في شارع جانبي ضيق في مدينة صغيرة عتيقة، مرصوفة بالحجارة وبيوتها مرتفعة الأبواب مزينة الحواف مطعمة بتفاصيل أزمان ماضية، كانت قد أوشكت الشمس على المغيب، بينما تقف مجموعة من الناس في كامل أبهتهم مزدانين بملابس سوداء رسمية ويطرق أحدهم باب بيت قديم منقوش على خشبه رأس غزال مكسور القرن، انتظروا عدة دقائق ولم يجب أحد عليهم، تململوا ودار الهمس بينهم بينما تتأكد السيدات من تمام زينتهن ويجري الأطفال وراء قط صغير ضل عن أمه، ثم بعد القليل من الانتظار تواصل إلى أسماعهم صوت خطوات بطيئة تقترب من الباب تلاها فتحه بأزيز ينم عن ثقل وزنه وقدمه، ويظهر من ورائه سيدة كبيرة السن في كامل زينتها تنظر إلى الواقفين أمامها بدهشة وترحاب.

ثم قالت:

- مساء الخير.

فردوا جميعًا بنحو غير منتظم:

- مساء الخير.

ثم سأل كبيرهم السيدة:

- هل تأخرنا؟

فردت:

- لا، في الحقيقة لقد وصلتم في الوقت المناسب.

بينما يرتقون السلم أردفت قائلة:

- لقد استيقظ "فضل" في الفجر ولم يكن قد نام إلا ساعتين، شرب القهوة في الشرفة ولم يتركها حتى الآن، ربما لو كان واقفًا لكنتم لاحظتموه ولكنه لم يبرح مقعده منذ ساعات، يا ربي كن معي، لا أعلم ماذا أفعل!

أريد أن أخفف عنه وأسليه ولكن لا تسعفني الكلمات، من الجيد أنكم أحضرتم الصغار معكم اليوم.

بعد لحظات من وصولهم تطرق السيدة ميريت على باب حجرة زوجها فضل قائلة:

- لقد وصل الضيوف.

لكن لم يتناه لسمعها أي رد فدخلت الحجرة فوجدته ما يزال جالسًا على مقعده في الشرفة.

تهمس وهي تقترب منه بخطوات وئيدة:

- فضل.

فينتبه بإمالة رأسه بدرجة صغيرة ناحيتها ولكن لم ينظر إليها، ثم بدأ رأسه يهتز كأنه مصاب برعشة بينما تمسك يداه بمقبضي الكرسي بقوة.

تقترب منه وتضع يدها على رأسه ماسحة شعره بحنان قائلة:

- لقد وصل الضيوف، هيا استعد لمقابلتهم.

ثم تعود إلى داخل الحجرة تجهز ملابسه الرسمية وبعدها تغادر لتجلس مع الضيوف.

...

تمر نصف ساعة ..

فضل يقف الآن أمام المرآة يشد ربطة عنقه بعنف ولا يكترث بكونها تخنقه، يحاول أن يمتلك أنفاسه بيأس، ينظر إلى عينيه في المرآة، تشده تفاصيل التجاعيد التي رسمها الزمن على وجهه وآثار وجهه المجدورة.

- ستون عامًا يا فضل، لم تترك شبرًا في جسدك حتى غمرته بالألم، بالرغبة، بالنشوة، بالبرد، بالدفء، ستون عامًا احتضنت فيها أحباءك بقوة، لم تترك إلا المستحيل وقد فعلته، كونت أسرة كبيرة وحاولت يومًا بعد يوم أن تكون من السعداء، ولكنك لم تشعر أبدًا بالشبع، كنت رجلًا

صالحًا، لم تسرق ولم ترشُ، لم تظلم ولم تؤذ، لم تفضح ولم تبتز، ولم تخن زوجتك، ستون عامًا من الصلاح ولم تشبع من الحياة، ولم يغمرك صلاحك بالسعادة ولم تشعر بالرضا، يا ليتك كنت آثمًا لاستمتعت ببكائك بين يدي الرب، لأحسست بالنشوة والبشرى في صلواتك، لقد أشعلت الشموع على قبور الماضين ووزعت الدقيق على البيوت الجائعة، ولكنك لم تسعد، ستون عامًا يا فضل قد مروا واليوم تنتهي حكايتك، يا قربان اليوم، ويا شفيع التائبين، اليوم تهب روحك كي يجنب الرب ذويك فتنة القتل، ولكنك وا أسفاه لم تشبع!

...

ينتهي من شد ربطة عنقه وينظر نظرة أخيرة إلى وجهه، متأملًا للمرة الأخيرة ملائمة الحجرة القديمة لجسده القديم، يشعر كأنه قطعة أثاث ثابتة منتمية لتلك الحجرة، يشعر بكونه عتيقًا ويتمنى لو يحيا حياة مقعد خشبي منقوش بزخارف دقيقة أعطاه صانع الأثاث من عمره شهرًا كاملًا وأعطته العيون حبًا لا يُستَر، نظرة أخيرة على عينيه، نظرة أخيرة نحو مقعده المفضل قبل أن تنحسر حجرته في فلق الباب المغلق.

ينزل درجات السلم مستندًا إلى الدرابزين، يختلط إحساسه براحة يده مع إحساسه بوداع الدرابزين الخشن له.

يقترب من حجرة الاستقبال، حيث يسود الصخب، تلمحه زوجته فتجري نحوه وتحتضنه بقوة، ثم تمسك بيده المرتعشة ليستقبلًا ضيوفهما، اللذين توجهت عيونهم اللامعة نحوه مختلطة المشاعر ولم يخل المشهد من دموع السيدات ونحيب حفيدتهما الكبرى، استمرت الأحضان ربع ساعة كاملة، لم يهدأ بكاء السيدات إلا بعد أن انتهوا من استقباله والجلوس في انتظار العشاء.

...

يجلس الصبي الصغير بجانب جده ثم يلتفت إليه فجأة ويسأل:

- لماذا سترحل يا جدي؟!

فينهره أبوه عن السؤال ولكن يستوقفه رد فضل:

- اتركه يسأل ...

مع ابتسامة بسيطة شعر معها الابن برغبة أبيه في الإجابة على السؤال:

- سأرحل لأنني أكملت الستين من عمري، هكذا فعل أبونا منذ أول الخلق.

- ولماذا رحل؟!

- رحل كي يجنبنا فتنة القتل، كي نتبعه فلا نستسلم للحياة، أن نعلم نهايتها منذ البداية.

- وأين ستذهب؟

- إلى رفقة الرب.

- وكيف ستذهب يا جدي؟

- سأتناول دواء خاصًا ينهي حياتي هنا ويبدأها هناك في نفس اللحظة.

- لن تشعر بالوحدة؟!

- ومن يشعر بالوحدة في رفقة خالقه!

- لكني لم أشبع من قضاء الوقت معك يا جدي.

- عزيزي نحن الذين قضينا ستين عامًا من حياتنا يجب علينا الرحيل كي نفسح لكم يا صغارنا حياة جديدة، تنطلقون فيها بلا خوف وبلا تلكؤ، هكذا فعل أبونا امتثالًا لأمر الرب وهكذا نفعل منذ رحيله.

- لكن انظر يا جدي إلى الحياة! ... إنها لم تنته، فلماذا نحن المنتهون؟!

- لأننا نسعى إلى الخالق بروحنا، نطمع في الحياة الأبدية.

- لكن حياتنا تلك أبدية، فهي لم تنته حتى الآن!

- هه هه هه يا صغيري، حياتنا تلك لا تخل من الشقاء، الحياة الأبدية هي النعيم.

- لكن هناك أشياء بين يديك ولم تجربها يا جدي، أحقًا تريد الرحيل.

ينظر نحو حفيده الصغير باضطراب باحثًا عن يقين ليجيبه عن سؤاله الأخير!

لكنه لم يجد ما يرد به إلّا:

- عليّ أن أرحل يا عزيزي . عليّ أن أرحل، فهذا واجبنا نحن أحفاد الأب.

يرد الحفيد:

- ولكن ...

فينهره أبوه تلك المرة ليتوقف عن الكلام بعد أن لاحظ الوجوم الذي ساد وجه أبيه فضل ..

...

حان موعد العشاء، فتوجهوا جميعًا لحجرة الطعام، تراصوا من حوله بينما هو يترأس سفرة الطعام.

بعد بداية العشاء بقليل استأذن فضل ليغسل وجهه بالماء، عرضت زوجته أن ترافقه ولكنه رفض!

تمر عدة دقائق ولم يعد، بدأ الجميع يتبادلون نظرات القلق، ربما يتشجع أحدهم ويعرب عن قلقه علانية، ولكن رغم مرور عدة دقائق أخرى على قلقهم، لم ينطق أي واحد منهم، قامت ميريت من مجلسها وذهبت للاطمئنان على زوجها، فلم تجده فعادت مسرعة إلى الضيوف:

- لم أجد فضل! ابحثوا عنه في المنزل!!

...

لم يجدوه في المنزل، فبدأت النساء في البحث عنه حول المنزل والرجال يجوبون شوارع المنطقة سائلين الناس عنه.

في تلك الأثناء كان فضل يمشي بسرعة مبتعدًا عن منزله محاولًا ألا يثير ريبة الناس من حوله، تتسارع دقات قلبه، يشعر بارتفاع حرارة جسده، ينتبه لكل حركة دقيقة من حوله، ينظر للأمام ولا يدري أين يتوجه!

يتردد سؤال حفيده في خاطره "أحقًا تريد الرحيل؟!".

ويردد إجابة يقينية على لسانه "لا أريد الرحيل، لا أريد الرحيل".

غالبه الدمع حين شعر باقتراب النهاية، يحاول أن يجفف وجهه وأن ينتبه ألا يصطدم بأحد المارة، لكن الدمع غالبه

فتوقف مكانه للحظات، عندها سمع المنادون عليه، لم يلتفت إلى الوراء، وبدأ يتحرك بسرعة محاولًا أن يجري ولكن لم تسعفه قدماه، يسمع اقتراب جريهم نحوه، يعلم أنهم لا بد لمدركوه، فتوقف مرة أخرى، صارخًا "لا أريد الموت".

رددها كثيرًا حتى تداخلت كلماتها، لم يعد من الممكن أن ينطقها بقوة، غالبته الدموع، يجذبونه بقوة، يحاول الهرب، يقترب المارة من حوله، يصيح أحدهم اقتلوه قبل أن ينزل علينا غضب الرب، فتتكرر الكلمة على الألسنة "اقتلوه، اقتلوه، اقتلوه " أغمض عينيه، تكالبت عليه اللكمات، لم يستطع أهله أن يخلصوه من قبضة الآخرين، يمسك ابنه بحجر ضخم، ينادي عليه بقوة "أبي " فيلتفت فضل بعينه نحو ابنه، يهشم الابن رأس أبيه بقوة مخلصًا له من طول العذاب وهو يبكي قائلا:

- سامحني يا أبي، فلن نحتمل غضب الرب!!!

❁❁

أم السيد

الساعة السابعة صباحًا، الضباب يكسو الطريق كما لو انطبقت السماء على الأرض، على طريق طويل يربط حقول البطاطس المحدودة المساحة بقرية صغيرة تتحرك سيارة نقل صغيرة ببطء، يحاول سائقها بقدر الإمكان ألا تفلت سيارته من فوق ذلك الطريق الترابي الضيق فتسقط في الترعة الضيقة بجانبه، في ذلك الضباب لا يظهر الفارق بين الطريق والترعة، أما كيف يستمر السائق دون السقوط في الترعة فهو أمر لا أحد يعلم سره، ترتجف السيارة فتتخبط أجساد النساء في صندوقها، ملطخات بالتراب النديّ وتفوح منهن رائحة العرق، كأنهن قد انتهين للتو من العمل، كان صندوق السيارة واسعًا لكنه رغم ذلك بات ضيقًا من كثرة النسوة، ثلاثون امرأة، منهن العجوز والأربعينية وحديثة الزواج والفتاة التي لم يعلن جسدها عن بلوغ النضج بعد، كلهن نعساوات إلا القلة منهن تظهر على وجوههن ملامح البهجة!

تجلس أم السيد مقرفصة مولية ظهرها لجانب الصندوق وتجلس بجانبها صبحية، أم السيد، عجوزٌ وحيدة سافر ابنها منذ سنوات للعمل بالخارج ولم يراسلها منذ ذلك اليوم، في سفره أصابها المرض وهزلت حتى صرخ العَظم في ملامحها وتغير لونها وضعف بصرها وتورمت أطرافها، حتى اكتشفت ذات يوم أنها تحتاج إلى غسيل كلوي كل أسبوع، لا تنطق أم السيد إلا باليسير فهي تخجل من رائحة فيها، كانت سيدة حيية في شبابها وحتى اليوم ما يزال وجهها يضرج بالحمرة حين يعتريها الخجل، أما صبحية فسيدة حديثة الزواج، فتية الجسد وضاربة الأنوثة وكثيرة الكلم ودائمة الابتهاج.

بادرت صبحية بالكلام:

- كيف أحوالك يا أم السيد؟

- الحمد لله.

- وصحتك؟

- بخير الحمد لله.

- سأخبرك بسر خطير ولكن لا تخبري أحد من النسوة.

- ...

- العام الحالي، البطاطس مريضة والكثير منها سيُرمى، لذلك فلن يؤجر منا إلا نصف العدد.

- الرزق على الله.

- أُعلمك كي تحاربين على دورك.

- تعلمين أنني لا أقدر، فجسدي يحملني بصعوبة.

- قلبي عندك يا أم السيد.

- تعيشين يا صبحية.

...

تصل السيارة أخيرًا إلى الحقل المنشود، فتتوقف ويفتح السائق الصندوق المغلق من الخارج، فتتقافز من داخله النسوة بسرعة غريبة ولم يخل المشهد من سقوط إحداهن على وجهها وتمزق قماش ثياب أخرى، لكن ذلك لم يمنعهن من الجري، إلا أم السيد كانت آخرهن في النزول من الصندوق، تحث خطاها على مهل فلا جسدها يسمح لها بمناطحتهن ولا بصرها يسعفها برؤية أبعد من خطوة، تمسك بطرف الصندوق بيد وتحاول النزول كأنما لا تعلم لنزولها نهاية، حتى عانقت قدماها الأرض فشعرت بانتهاء السقوط.

تخطو للأمام ناحية النسوة المجتمعين حول صاحب الأرض، الجالس على كرسيه يشرب كوبًا من الشاي ولا يعيرهن أي انتباه، مرتديًا جلبابه الرمادي المخطط طوليًا بالبني، يظهر على جسده أثر العز والغنى عن السؤال، عيناه المرتاحتان لكثرة النوم تبينان أنه لا يحمل الهم، ينتهي أخيرًا من كوب الشاي وينظر في هاتفه ويجري مكالمة طويلة، ثم يتجه بنظره ناحية النسوة آمرًا لهن بالوقوف في صفين، تتسابقن على الوقوف في أول الطابور، تتشاحن الأكتاف وتتشابك الأيدي، يتابعهن بتحمس، يرى الضحكة على وجه صبحية الجميلة الواقفة في أول الصف الثاني فيفتنه شبابها، بينما تقف أم السيد في آخر الصف الأول منهكة تدعو همسًا، كررت الفاتحة حتى كادت أن تنفرط حروفها منها ...

يقف أمامهن واضعًا يديه في جيبيّ الجلباب، مشيرًا بذقنه إلى الصف الذي تقف بنهايته أم السيد:

ـ هذا الصف ما عدا الأخيرة، وأنتِ ـ ناظرًا لصبحية ـ معهن.

فتتعالى الصيحات من الصف الذي لم يختره معترضات، لكنه ولّى لهن ظهره وعاد إلى كرسيه متصفحًا جريدته.

تذهب صبحية إلى أم السيد محاولة أن تواسيها، لكن لم تجد من الأخرى إلا ابتسامة والكثير من الحمد، فتشمر عن ساعديها وتنطلق بخطى سريعة نحو أرض البطاطس.

كانت الصدمة قوية على أم السيد التي لم تكن تملك إلا جنيهًا واحدًا أتت به إلى أرض البطاطس آملة أن تعود بخمسين أخرى ! كأنما بهتت الدنيا من حولها وتغير لون الأرض الأخضر فأصابه الرماد، كانت الشمس ساخنة لكنها شعرت بالبرودة، وبدأ جسدها بالارتجاف، بدأت في المشي عائدة إلى بيتها، تقف على بداية الطريق الترابي الضيق ولا تدرك له نهاية، كأنه الأبدية وهي تعزم على قطعها خطوة خطوة، تنسل الروية من قلبها وتضيق الأرض بما رحبت، تسير كأنها ستقع على الطريق الضبابي في عينيها والذي ضاق حتى أصبح في سمك شعرة، لا تراها ولا تدرك لها نهاية وتخاف أن تسقط في الترعة!

ـ سيد كان فتًى طيبًا، كانت جاراتي دومًا ما يحسدنني عليه، سيد راح، سيد جاء، سيد ذهب، تفرحين بسيد، لا شاب مثل سيد، أين سيد الآن، لا أطلب منه شيئًا لكنه لا يأتي، ألم يفتقدني؟ ! أنا أفتقده، علمته كيف يحبو وعلمته كيف يمشي، حملته على ظهري كأني حمارة، وربطت بطني من الجوع حتى يشبع، دعوت له حتى جف الدمع من عيني وضعف البصر وضجر مني وهرب، هرب سيد فزال معه النور، وغشى الكون غيمة لا تنتهي، كشفت رأسي ورميتها بالتراب وبكيته كالموتى حتى لا يموت، الأجساد لا تفارق مدفنها، دفنته هنا تحت فرن البيت، حتى يعود دافئًا إليّ، لكنه لم يعد، رحل كوالده الذي لم يتبق منه شيء في القطار المحترق، أردت أن أصلي عليه وأن ألمس نعشه وأعطر كفنه بالمسك، لم يمسح على رأسي أحد في عزائه، لم يكن سيد موجودًا، أم السيد بلا سيد وأم السيد بلا أبو السيد، أم بلا ابن وزوجة بلا زوج، ما بال ذلك الطريق لا ينتهي!

أشعر بالألم، لكن كثيرًا ما دقت على الرأس الطبول، عندما أشعر بالوحدة، أجمع القش وأشعله في الفرن، هناك دفنت أحبابي، هناك أحتضنهم، هناك أحرق أشواقي وألملم

ألمي وأبثه إليهم، آه يا سيد، كنت أريد أن أرى عروسك التي لم أسمع عنها إلا من الناس، أهنت عليك؟ ! يا طريقي الذي لا ينتهي.

...

تثقل خطوتها بينما تقترب من منتصف الطريق، تظلم عيناها من الإعياء، وتسقط مغشيًا عليها.

يمر بها توكتوك، ينزل صاحبه ويرشها بالماء حتى وعت وانتبهت إلى النور، أوصلها إلى منزلها، الذي دخلت إليه كأنما عادت لحياتها، طلب منها سائق التوكتوك أن ترتاح وسألها عن أي حاجة لها، فطلبت منه أن يسندها لتجلس أمام الفرن فعكزها حتى جلست، فأردفت طالبة منه أن يضع القش بالفرن ويشعله، ففعل، ثم تركها وذهب.

تنظر إلى النار ساهمة، لا تدري شيئًا من حولها، لا تشعر بقدميها، ولا حتى بالدفء.

❁❁

باب اللوم

أتظنون بي ظن السكارى؟!
هل اعتراضي كضعف الحيارى؟
أترمون وسخ الحياة على ظهري؟
هل بهيمة الأنعام أكون؟
أسمع وأصمت وأهون
إن طالت أصواتكم الأفق
فكلماتي سابقتكم في الطرق
لا تلوموني فأنا لائم لا مَلُوم

***

ماتت، أخيرًا ماتت، بعد عمر طويل دججته بالويلات التي لا تندثر، خيباتي التي لا تنتهي، بؤسي الذي لازمني طوال حياتي، قضبان سجني التي حاصرتني ولم تنطلِ حيلتي عليها ولم تجدِ، ذهبت، فقط ذهبت، لم ترفع الراية البيضاء معلنة استسلامها ورحيلها عني، كأنها كانت ممسكة بتلابيب جلبابي ثم اختفت، لم أغمض عيني حتى، لم ألحظ رحيلها، كانت اللحظة التي اختفت فيها كأنها لم تكن، لم

تدر دمعي برحيلها، كانت هنا ثم لم تعد، كأنها آثرت ألا تصيبني بالضجر عندما قررت الرحيل، على غير عادتها تلك المرة قررت السلام، السلام الذي أتى بعد سنين الحرب التي أعلنتها عليّ منذ أول تأوهاتها في فراشي، كانت عنيفة غشيمة عفوية، تشعرني بقلة الحيلة لأنها لا تدري وتحتاج إلى من يوجهها ولكنها تأبى التوجيه، كأنها تدري ولا تدري، كأنها العذراء وقد طال وصالها بالرب فتعلم ما تدريه عن علم غير علمنا ولا تناقش فيه إنس ولا جان، ماتت، أخيرًا ماتت، طالما أتعبتني وطالما وجهت دفة حياتي على غير ما أريد، والآن آن لسفينتي العصماء أن ترسو على شاطئ جزيرتي، جزيرتي التي لن تكون وجهتي الأخيرة، سأعدو نحو الفيافي والقفار، سأصعد الجبال وأصلي في كهوف البادية، سأشرب من بئر النسيان، سأسكر من جسد الطبيعة، سأزهو بوصلي لرب الخلق أجمعين، سأنطلق في رحلتي الأخيرة نحو سعادتي، كنت حبيس أركان جسدها المنتفخ، كانت حدود حياتي التي لم أجرؤ على تخطيها، ماتت، أخيرًا ماتت وبدأت حياتي، كأني أبعث من جديد لأجرب من جديد وكأن صفحاتي

الماضية قد محيت بإذن إلهي لا يبخل بتمديد عمري عهدًا آخر، سأحيا من جديد.

جالسًا على مصطبة بيته الإسمنتية والتي تلتحم في جسد البيت كأنها زائدة قد بلي بها، مقرفصًا وناظرًا نحو الأفق البعيد بين نخلتيه السامقتين، يراقب شمس العصر التي توشك على المغيب ويتأمل في رحلته التي قد انتظرها ما يربو من خمس عقود من عمره، عمره الذي قد ختمه بختم الانتهاء والإعفاء من المسئولية وأعطى لنفسه إذنًا كتابيًا بحياة جديدة، من اليوم، من تلك اللحظة، ينادي على ابنه ليأتيه بكوب الشاي الذي يتناوله بعد الغداء كعادته التي لم تفارقه منذ طفولته والتي ورثها عن أبيه عن جده عن جد جده، الشاي على المصطبة وقت المغيب ((يا سعد، الشاي يا سعد)) يتذكر ماضيه المفتقد، يتذكر ((بدرية، سماعة الطبيب، السفر للمدينة، البذلة الميري، البالطو الأبيض، احترام العمدة له، احترام أهل القرية له، يافطة تحمل اسمه .....)) أشياء لم تحدث وكانت لتحدث لولا الزمن وأنبيائه الناذرين بالعقاب، العقاب الذي لازمه حتى اليوم، حتى ماتت، أخيرًا ماتت ... يبدأ في إعداد خطته، التي لن تخلو من المتعة، سيزور سيدنا الحسين، السيدة نفيسة، السيدة

زينب، السيد البدوي، سيزور النبي والكعبة، سيصبح الحاج عبد الباسط وسيرزقه هذا بفيض من الاحترام من أبناء قريته، سيصبح في مكانة الأولياء والصالحين، سيتبرك أهل القرية به وسيكون مرحبًا به في كل مجالس القرية وبيوتها، ستصيبه الدعوات التي ستخرج من أفواه أهل القرية بالخير الوفير وستحميه شر الحسد وحقد الحاقدين.

لماذا لم يأتِ هذا الغبي؟! ((سعد، الشاي)) ... بدرية، سيدة الحسن، يتذكرها جيدًا كأنها أمامه بضفائرها التي تغطي ظهرها وخصلات شعرها السوداء وعينيها الكحيلة، يتذكر ابتسامتها، يتذكر تغني أبوها بحسنها وكرم أخلاقها وحياءها، هذا الجمال الذي رغبت أن تهبه كله له دون خوف، ولكن اعتراض أبيه، الذي فرض عليه أن يتزوج من ابنة عمه ليحمي عائلته من التشتت بعد وفاته، بدرية التي رفضت الزواج من أي أحد غيره رغم زواجه، يتذكر كيف كان يحتضنها في الغيط ويداعب رقبتها في موضع تلك الحسنة الصغيرة فيها، يقبلها كأنه يرشف من نهر من العسل، يشبع نفسه بفيض عشقها ولا يشبع، يمنيها بالزواج وحين قرر أن يتزوجها فشل، لم يقوَ على معارضة أبيه،

واستسلم لرغبته وخذلها، تركها وحيدة رافضة أن يمسها رجل آخر غيره، سجنها أبوها في البيت، أصيبت بالجنون، ذات يوم تم عقد قرانها على أحد أبناء القرية ولكنها هربت في يوم عرسها، وجدوها بعد هذا اليوم بعدة أيام في أحد الحقول، لم يرغب زوجها في أن تلازمه الفضيحة فطلقها وأرسل إشاعات عليها في البلدة أن مشيها بطال، ((ليتني أستطيع الزواج منها، لكن ما باليد حيلة)) فالزواج منها سيتكلف كثيرًا ليس فقط طعامها وشرابها وكسوتها و((لكن لن أقدر على اصطحابها للطبيب كل أسبوع مرة في المدينة التي تبعد عنَّا خمسون كيلومترا)) القرية كلها تعرف أنها تذهب أسبوعيًا جلسة العلاج ولكن لا نتيجة تذكر، كما أنه لا يضمن أن تهرب منه في يوم زواجهما، ربما تصرخ فيه عندما يحاول لمسها فربما بعد كل تلك السنين قد نسيت أنها صامت عن كل الرجال من أجله، ربما لم تعد ترغب فيه هو أيضًا، ربما لم تكن لتجن لو أن أباه سمح له بالزواج منها، ربما ! ((الشاي يا سعد، أنت يا غبي)).

الغيط، تلك الأرض، تلك الروح، تلك الحياة، ذلك العمر، كل تلك الذكريات، روحي التي تبددت طيلة حياتي في كل

عزقة أرض، في كل موسم حصاد، في فراشات الحقل، في دفقات المياه وقت الري، حقيقة لن أقوى على ترك تلك الأرض والعدو وراء حلمي الصغير الذي يوشك أن ينجلي وتصقل راياته، كيف أترك تلك الأرض التي حين غضبت ألقيت فيها جام غضبي ودفنته، وحين اشتقت إلى بدرية حملت الفأس بكل قوة وسرت أحطم الأرض مهشمًا رغبتي التي تتأجج داخلي، وحين تزوجت فإن حياتي وروحي كلها قد قاسمتها تلك الأرض، تلك الأرض التي لولا وجودي لصارت قاحلة، ولكنها الآن حياتي التي تنبت بالزرع كلما آن وقت الحصاد، أزرع غضبي وحزني واشتياقي والتياعي ثم أحصده نبتًا غضًا نضرًا، تلك الأرض التي مدت عمري لخمس عقود، فكيف لي أن أتركها وأرحل، كيف لي أن أوليها ظهري وأختفي، هل لي أن أنفخ فيها فتصير جسدًا يرافقني أنى ذهبت ، تحمل عني و أحمل عنها ، أذود عنها و تذود عني ، أزودها و تزودني ، هل لي ؟! سأظل حبيس تلك الأرض فحياتي ستنتهي وقت إعلاني لرغبة جديدة، رغبة تخلو من وجودها، حياة بلا أرضي هي الموت هي الفناء هي اللاحياة.

...

يظهر سعد من باب البيت حاملًا كوب الشاي على صينية، يتركه بجانب أبيه على المصطبة ويهم بدخول البيت مرة أخرى، فيستوقفه عبد الباسط قائلًا ((تعال، اجلس إلى جانبي)) يجلس إلى جانب أبيه وينظر له باستغراب مملوء ببعض الغيظ المكتوم، لا يسفر عن شعور واضح ولكن يوشك على الانفجار . ((يجب أن تخلع رداء الحزن، فقد انتهت أيام العزاء ولن تبتهج أمك بحزنك الذي كبل ضحكاتك)) ينظر عبد الباسط لوجه ابنه ويستشف من ملامحه إجابة تائهة في عيونه . ((يجب أن تتزوج فالعمر قصير ويجب أن تجد لك شريكة حياتك، وأريد لنفسي أحفاد قبل الممات)) ذات النظرة لا تنتهي كأنها دائرة مغلقة تحوم حول شعور يوشك على شق قشرة بيضته، ليعطي فرخًا صارخًا يوحي بالأمل والضعف والوحدة لأن الأم الحانية غير موجودة . ((ما رأيك بمريم بنت عم حسن، حسب ونسب، جمال وبهاء، حياء ودين، وأصيلة، تعين أباها دومًا في الغيط، فلا يشكو تعب الحرث ولا الري ولا الجني)) أخيرًا خرج الوحش الرابض من قمقم السكون والصمت وهب الابن منفجرًا في وجه أبيه، قاطعًا حديثه بقوله ((تقتل قتيل وتمشي في جنازته)) ينظر إليه أبوه

دهشًا ولكن ذلك لم يمنع الابن عن إكمال حديثه المفعم بوهج الصوت العالي وحمرة وجنتيه ونفور العروق في عنقه . ((هي التي أغدقت عليك بما تملك من الأرض ووهبتك إياه عن طيب خاطر ورضا، هي التي أفنت عمرها في خدمتك، في إرضاء غرورك ورغباتك، هي التي تحملت شكواك وغضبك الأعمى، هي التي عافت نفسها الرد على اتهاماتك، هي التي مرضت وخشيت أن تصيبك بالضجر أو القلق فأخفت عنك خبر مرضها، هي التي ماتت في صمت، وكل ما تتلقاه منك الآن أنك اكتفيت من الحزن عليها أو ادعاء الحزن والآن تبحث عن بهجة تدخلها على حياتك، فأي حيلة ستستخدم تلك المرة أي حيلة؟ ! أنت السبب في مرضها، أنت السبب في سجنها وسط ويلات اللوم على كل خطأ يحدث في حياتك، على كل إخفاقة تمر على خط حياتك البائس، أنت الذي قتلتها، أنت السبب ...)) ينظر في حدقتي عيني ابنه كأنهما انعكاس لماضيه، تملكته الدهشة التي دفعته دفعًا لا هوادة فيه نحو الماضي، نحو البدايات، نحو الغرق، نحو الألم، نحو المكاشفة، نحو التعري من ثوب الفضيلة، يغرق في

ذكريات الماضي في لحظة في وسط كلمات ابنه التي تتدفق بلا توقف ...

...

((لماذا تأخرت يا ولد أنت وهو، انطق، قل)) ينظر الشيخ عرفات غاضبًا صوب الطفلين، عبد الباسط وزميله، سهام الغضب تحوطهم وترجرج قلبيهما، وتبدأ أسنانهما بالإصطكاك خوفًا، فيبادر زميله بالإجابة ((لقد كنا في طريقنا إلى هنا، ثم اقترح عبد الباسط أن نذهب إلى السوق لنشاهد المولد، وهناك تعارك مع أحد الصبية، وحاولت جاهدًا أن آخذه بعيدًا وننسل من الصبية الذين تجمعوا حولنا ليضربوننا، وجئنا بسرعة إلى هنا)) كانت شهادة زميله قوية ومكتملة ومضللة، ولن يفيده أن يعترض على تلك الشهادة لأنه لا يوجد آخرون ليؤيدوا روايته فيما حدث، ولو تجرأ وأفصح عن الحقيقة ستنجم حيرة الشيخ عن عقاب لكليهما، فليكن اختزان تلك الحادثة كالثأر، يقتنص من زميله بعض المنافع في المستقبل، ولكن ضربات الشيخ العشرون على قدميه جعلته يندم على عدم إفصاحه بالحقيقة، لربما كان معافى الآن من ذلك العقاب المؤلم، يتذكر ضحكات زميله المخفية التي كانت تزداد

وضوحًا مع ازدياد الألم، كان له أن يفكر في الثأر منه، بأعتى الطرق ولن تأخذه به أي شفقة، أما عن الدرس الذي تلقاه في هذا اليوم، أنه لا بد أن يسارع بإلقاء اللوم على الآخرين مذنبًا كان أو بريئ ليخلص نفسه من ظلم العقاب وعدله، يتذكر اليوم التالي وهما في طريقهما إلى الكتَّاب، قد تصارحا وتسامحا وعفا عن صاحبه الذي صدقه بسذاجة الأطفال رغم دهائه الذي تبين جليًا في اليوم السابق، مرورًا بحقل أحد الرجال الغلاظ المشهورين بضيق العقل وسرعة الغضب وطول اليد واللسان، صاح عبد الباسط في ظهر الرجل وشتمه، ثم بادر مع التفاتة الرجل الغاضبة يصب اللوم على صاحبه، ويتهمه بسب الرجل وأنه حاول نهره عن ذلك ولكنه لم يكف، فانتهى المشهد بأناس يحاولون تخليص زميله من يد هذا الرجل سريع الغضبة، نظر إليه ضاحكًا وقال ((واحدة بواحدة))، وللمرة الثانية تصارحا وتسامحا وعفا كلاهما عن الآخر، لكن عندما وصلا إلى الكتَّاب، سأل شيخ الكتَّاب عن سبب تأخرهما فبادر عبد الباسط ((لقد كنا في طريقنا إلى هنا عندما قام علي بسب عم زاهي، فلقنه عم زاهي درسًا لن ينساه)) وبانت بيض نواجذه مسفرة عن ضحكة ماكرة،

ولكن شيخ الكتَّاب لم يعاقب زميله على التأخر ورأى أن عم زاهي قام بالواجب وزيادة، لم يكن غريبًا على علي أن يقاطع عبد الباسط بعد هذا اليوم خاصة بعدما بادر بإلقاء اللوم عليه في الكتَّاب بعد تصالحهما للمرة الثانية، ولكن علي لم يتوقف عن محاولة الثأر، والتي كانت دائمًا محاولات تبوء بالفشل، فما كان منه إلا أن نشر هوات الوقيعة بين عبد الباسط وزملائه في الكتَّاب، فصار وحيدًا، يمشي وحده، يحفظ وحده، يلعب وحده، بل لم يعد يلعب، فأصبح مجبرًا على الغيط، يغدو إلى الكتَّاب متأخرًا فيتحجج بالعمل في الغيط ويلقي اللوم على أبيه الذي يثقل كاهله بالعمل في الفلاحة، كانت حججه تصبح أقوى في أوقات الحرث والري والجني، وعندما يرغب في الراحة من العمل في الغيط كان يتحجج بالشيخ والكتَّاب، تارة يقول أنه كلفه بحفظ ربع كامل، وتارة يقول أنه كلفه بمراجعة جزء بأكمله، الشيء الوحيد الذي كان يشفع له عند أبيه والشيخ عرفات هو نبوغه الذي جعل الحفظ بالنسبة له يسير، فكان يتلقى الشعر من على لسان الشيخ عرفات فلا ينساه، فكان يتفاخر به الشيخ أمام كل الناس حتى أبيه، فصار الزهو كالعدوى إلى أبيه، ربما كان هذا

هو السبب الذي دفع أباه إلى إدخاله للمدرسة، ولكن نبوغه في إلقاء اللوم على الآخرين لم يفارقه، ولازمه في المدرسة، ولكن هذا لم يمنعه من أن يلمع من بين زملائه، ويحفظ اسمه كل المدرسين وناظر المدرسة، ولكن لا أصدقاء، كان الشرط الوحيد لدخوله المدرسة هو أن يعين أباه ساعتين يوميًا في الغيط، وقد زال الشرط مع حججه التي لا تنتهي، حتى أتى اليوم الذي غير حياته وقصم طموحه، لقد وقع أبوه مريضًا ولازم الفراش وأصبح الغيط في مهب الريح معرضًا المحصول للموت من الجفاف، كان عليه أن يترك المدرسة حتى يعود أبوه إلى صحته ويعود إلى أرضه، وهذا ما لم يحدث حتى اليوم .

...

البلهارسيا، تلك الآفة التي نهشت جسد أبي وطردت روحه، أتذكر آهاته والدماء على فراشه، أتذكر بكاء أبي، ذلك الرجل الجلف الذي تساوي الكلمة منه رعدة تفرض الاحترام والخوف، أبكته البلهارسيا، أبكته وأدمته حتى الموت، أتاه سريعًا في خلال أيام ولم يبخل عليه بالراحة، لقد عافته نفسه أن يرى أحد الأسود الباكية، ساعتها لاهتز

الكون وفقد توازنه، أتاه سريعًا وخطف روحه ومضى، وتركني في حيرتي وويلاتي.

...

كان رحيل أبيه بمثابة إعلان رحيله عن المدرسة قبل الجامعة بخطوة واحدة وتدثره بعباءة الفلاحة، لا دراسة بعد اليوم، كل ما تبقى هو الحرث والري والجني، عشر سنوات تمر يرى فيها زملاءَه وقد انتهوا من دراستهم، علي أصبح طبيبًا، وسالم أصبح أفندي موظف، وطلبة صار مدرسًا في مدرسة القرية، الكل أصبح يشار لهم بالبنان ويقال الدكتور فلان والأستاذ علان، يعملون صباحًا ولا يقلقون بشأن المحصول فمحصولهم ستوفره لهم الحكومة آخر الشهر، لا يخافون على أنفسهم من البلهارسيا التي ستنهش جسده من غمر قدميه في مياه الري، كانت كل تلك الأفكار تتجمع نصب عينيه كلما أثقلت عليه أمه في الطلبات، يضرب أخماس في أسداس ويبدأ في إلقاء اللوم على أبيه الذي تركه ورحل وأقحمه في تلك الأرض التي ستودي بحياته مقتولًا بالبلهارسيا .

...

ضاعت بدرية، وبقي في رقبتي ذلك الحمل وتلك الخطوبة التي تأمرني بالزواج من ابنة عمي، ألجم حبي ثم ذهب، ضاعت بدرية كما ضاع عقلها، فتزوجت ابنة عمي، والولد، أين الولد؟ !، حفيت من أجل الونس في الدنيا، الولد الذي سأدخله المدرسة وأفخر به كونه أستاذًا أو أفنديًا أو طبيبًا، لكن مر عام ولا نتيجة، مر عام آخر ولا نتيجة، طالبتني زوجة عمي بالسماح لابنتها بالذهاب للطبيب والتحقق من السبب، لكن الفضيحة، ماذا لو كنت أنا السبب، ماذا لو كنت عقيمًا، كيف ستكون فضيحتي على ألسنة أهل القرية، ستصبح سيرتي على كل لسان ((ليس عندي سيدات تتكشف على طبيب)) وبادرت بإلقاء اللوم على زوجتي، حتى لا يتسلل إليها هاجس كوني السبب في تأخر هذا الحمل، ولكي تنطلي عليها الحيلة بادرت بأكل الحمام والبط ولكن لا نتيجة، مر عام آخر، اثنين، وأخيرًا، طفلي الصغير الذي يشبه أبي كثيرًا، ذلك الأنف الأفطس والشعر المجعد والحاجبين الكثيفين كقوس منكس، رجل ابن رجل .

...

بذل كل مجهوده محاولًا أن يتمسك ابنه بالمدرسة، ولكن زوجته الأمية لا ترى ذلك، ترى الأرض هي الملاذ الأخير للفلاح، هي حائط الصد الأخير ضد دسائس الدنيا، عليه أن يشب كأبيه وجده وجد جده، يجري في الغيط، يحرث ويروي ويجني، ولأن زوجها صعب المراس فقد شبكت شباكها حول عقل ابنها الصغير، توسوس له بإهمال دراسته وحب الأرض، وتمنيه بالخير الوفير الذي سيجنيه من الفلاحة، وأنها ستعطيه أرضها كلها ليزرعها، بدأ يترك المدرسة ويذهب للغيط، ينهره أبوه مرة وأخرى ولكن لا فائدة وأخيرًا يترك المدرسة، وتبدد حلم أبيه في وساوس زوجته التي جنت على ابن آخر في تلك العائلة، وسلمت ضحية جديدة للبلهارسيا، وصار ذراعه اليمنى التي لا يكتمل عمله إلا بها، وكان يفخر به حين يجلس أمام النفر في أرضه، ولكن في جلسة أخرى من جلسات القرية، حين يفخر أحدهم بابنه الطبيب وآخر بابنه المهندس لا يجد لنفسه مكان وتعتلي وجنتيه الحمرة وتنتفخ أوداجه ويختفي أمام ظله هاربًا من جلسة أخرى من الخجل، حتى لازم البيت وصارت المصطبة هي منتهى جلساته وغايته الوحيدة.

((أنت السبب، أنت قتلتها، دائمًا كنت تلومها على كل أخطائك، وبين الناس تلومها على تقصيرك وقلة حيلتك، تتأخر في سداد دين عليك فتتحجج بأنها تأخرت في تنظيف الغلة، تجلس في أحد مجالس القرية وتلومها على تركي للمدرسة، حتى أصبحت حديث القرية صغيرها وكبيرها، حتى أنها اشتهرت بالمرأة التي ميلت حال ابنها ...)).

((أتلومني أنا، بعد كل ما فعلته من أجلك، لخوفي عليك، لرغبتي في تعليمك، لرغبتي في الزهو بك، أنت السبب، أنت الذي جعلتني أصب جام لومي عليها، أنت الذي أطعتها، أنت .....)).

❁❁

ثلاثة جدران والسماء

أستيقظ كل يوم في ذلك المربع المهدد بالانحسار في شكل مثلث أو شكل غير منتظم بحسب إرادة السماء، غارة اليوم لم تكن قوية وقد أصابت أحد المنازل في أول الشارع، مسكينة السيدة فاطمة كانت تعيش وحيدة ولم يستطع أحد انقاذها، فقد أبت أن تأوي إلى أحد البيوت المنهارة أو أن تطفئ الأضواء، لم تكن تكتفي بشمعة واحدة بل كان عليها أن تضيء كل أضواء المنزل بما في ذلك ضوء حديقتها الصغيرة، كأنها تحاول أن تسيطر على أشباح الظلام التي تلاحقها منذ موت عائلتها الصغيرة في حادث مؤسف، خيم الحزن عليها لسنوات وقضت أسابيعها الأولى من موت أسرتها الصغيرة في الحديقة تحرك أرجوحة طفلها الصغير وتحتضن دميته الدب كلو وتبكي، لم تعد تسمح لأي من عمال النظافة بتخطي باب الحديقة فما بالكم بحجرات المنزل، أظنه مليئًا بخيوط العنكبوت فهي لم تكن تفعل شيئًا في حياتها اليومية سوى النظر في النافذة وتحريك الأرجوحة التي أصابها الصدأ وظهر أثره

في الأزيز العالي في صمت الصباح، لم تكن خسارتنا الأولى في الحي فما أصاب عيسى في الغارة الأولى من الحرب أصابنا جميعًا بالهلع، فقد بُترت ساقاه وفقد قدرته على الكلام، أصبح الآن أكثرنا جسارة، يجلس على كرسيه المتحرك وينتظر في الشارع كل يوم الغارة الجديدة، يصفر بصفارته الضخمة فينبهنا جميعًا لإطفاء الأضواء ولم يعد يخشى بتر ما تبقى من جسده، يقول أن روحه قد انسلت مع ساقيه المبتورتين إلى القبر، فهو الآن شبح عيسى والأشباح لا تتألم، أستيقظ كل يوم صباحًا بمشهد موحد، كلبي الصغير هوجو - يلعق وجهي معلنًا رغبته في التبول، لم يفقده سقوط جدار واجهة المنزل شعوره بالمسئولية وحدود المنزل المفقودة، أنام كل يوم بين ثلاثة جدران والسماء، تلك التي يوم ما ستعلن غارة قادمة من أجلي أو من أجل ما تبقى من جدران منزلي الصغير، فقدت اهتمامي بنفسي منذ فترة حتى أن والدي وأختي الصغيرة قد أصبحوا ينظرون إليّ بتعجب، كنت أمتثل ساعات كل يوم أمام المرآة، تقلقني أحد البثور المؤقتة وتؤرق نومي، أما الآن فوجهي مليئ بالتراب والحبوب الناتجة عن القلق وربما المرض، إن هذا الكلب الصغير

يقودني نحو عيسى، لا بأس، سألقي عليه تحية الصباح، من المؤكد أن وجهي لن يزعجه كما يثير أسف عائلتي الصغيرة، لا يتوقف هوجو عن لعق كرسي عيسى، يعبث عيسى معه ويقدم له عظم الدجاج لذلك صارا أصدقاء بسرعة، أصاب عيسى الوجوم فجأة، لم يستطع الكلام فأخذ يبحث عن الصفارة ولكنه لم يجدها فقد أخذها هوجو بين أنيابه وأخذ يجري في آخر الحي، ينظر إليّ بشدة وعيناه تجحظان بشكل مريب، يبدو أن الأمر خطير، يبدو أنها النهاية تلك المرة، أمسك عيسى بيدي في ثانية بطيئة ونظرنا إلى السماء!

❀❀

حلم

لم يتبق لي شيءٌ سوى دهشة غامضة، كطليق في العدم حيث يتوقف الزمن، الأرجوحة كانت عنيفة متوحشة، تملكها الغضب وتمثلت كوحش سادي ودارت بمقعدي كطواحين الهواء، لم تبق في بطني إلا الخوف، تشهد الأرض التي دفنت قيء المستضعف في ترابها أنني ما قاومت، عندها هدأت الأرجوحة على نحو مفاجيء وادَّعت أن شيئًا لم يحدث، هززتها بعنف فلم ترد، أمسكت بمطرقة حديدية وحطمت مقاعدها وكسرت مفصلها فما أصدرت إلا أزيز المتألم العاجز، كان علي ألا أهدر تلك اللحظة التي أطلقتني فيها حرًا بلا موت، كان للانتقام أن يشفيني لولا عدم اكتراثها بتحطيمي لها، لكنها لن تستطيع أن تخضخض أحدًا بعد تلك اللحظة، ستهزأ بها العصافير التي ستتخذ من عمودها النائم بين قوائمها محلًا لرقصة التزاوج، لن تقوى حتى على قتل قط صغير هرب من الموت في دفء أطلالها المهدومة غدرًا، لم أعد قادرًا على البقاء فقد أنهكني الدوران، وكَرَرْتُ حتى أصابني

الألم، نشيج صدري اختلط مع صوت أزيزها المباغت في نهاية الطريق قبل أن ينطفيء النور فجأة، كأن النهاية قد أزفت لمشهدي المؤلم بلا شهود يشفقون عليّ ويؤمنون على كلامي حين أفصح عنه في مجلسي، سيغالبني الجهلاء بالاستهزاء وسأنكمش بوجهي المحمر خجلًا، سأنزوي محزونًا طالبًا البرهان الإلهي على أن الأرجوحة قد عبثت بي حين آمنت لها بفرحتي، فقلبتني كمفتاح خشبي في قلب قفل حديدي، من المؤكد أنني لم أخرج من هناك كاملًا ولا بد من شيء قد دفن في كثب الرمل الرابض تحتها عطشًا لجسد المنتهين أمثالي، كان علي أن ألملم عقلي التائه في خضم تلك اللحظة المكدسة باللمحات الجنائزية، استشعرت الموت في ثوب أسود لم أره ولكنه يوجد هناك متربصًا بي في الظلام.

تمر بي الليلة ويأتي النهار، أتذكر جيدًا أنني ركبت أرجوحة كادت أن تقتلني ولكني لا أدري أي أرجوحة ركبت في قارب الصيد ذاك، أيقظني ربان السفينة على غير المعتاد من شخص بمنزلته أن يستجيب لرغبة أحد الركاب المتطفلين، كان يمكنه فقط أن يأمر أحد الصيادين ولكنه أصر على أن يوقظني ويعطيني طعام الإفطار

بنفسه، كان على غير عادته في الأيام الماضية التي مرت بصعوبة شاقة متوجة بليلة أمس، فقد كانت ليلة عنيفة تضاربت فيها الأقاويل كثيران متناطحة، كدت أشعر بأن البحر سيتمخض كاشفًا عن دوامة قوية تحطم القارب وتبتلعنا متخلصًا من ضوضاء أفكارنا وأهازيجنا الهازئة الكائدة.

بدأت الحكاية عندما قررت الجريدة أن تستغني عن خدماتي، فأنا لم أعد جوالًا وصيادًا ماهرًا لعجائب الأخبار والتقارير الصحفية، كنت أستحق إجازة بإرادتي قبل تسريحي عن العمل، إجازة من نوع آخر تستجيب لرغبات طفولتي الموؤودة، ولكن الآن بينما صرت بلا عمل فلا مناص من الاستجابة لروحي، جل ما أطلبه أن أرتدي زي الصيادين وأمسك شباك الصيد المتينة وأستمتع بمناطحة البحر الذي يأبى أن أختطف أرواح أسماكه من جوفه!

لم أدخر وقتًا ولم أتباطأ عن بعث الحلم المرغوب فيه بقوة، جهزت حقيبة صغيرة وبعض الملابس الثقيلة والكثير من المال وتركت هاتفي المحمول فلا حاجة لي به، فقد اعتدت على صمته الذي لا ينقطع، على طريق السفر كانت السيارة بطيئة حتى أنني أتذكر كم نخلة معوجة عقيم

رأيتها، أشجار النخيل تزاحم السماء، هن دومًا عيدان موتودة إلا تلك النخلات المنثنيات التي تتراقص في وسط زحام السيقان الباسقة وربما تعاني القهر، فالهواء لا يداعبها كشماوات النخيل، ربما كان يجب لها أن تحترق قبل أن تصل لنقطة الحصاد، عند الحصاد تشعر الأرض بالضجر من جدواها أن حملت نخلة عقيم لا تكتفي بالاختباء ولكنها تتثني شاغلة أكبر مساحة من الأرض يمكن أن تحتلها قبل السقوط بدرجة، يعجبني مثابرتها على البقاء وتؤلمني صرخاتها الجنائزية باكية أطفالها الذين لم يأتوا، إلا شجرة واحدة معوجة كانت مثمرة، مثمرة بشكل غير عادي يقف تحتها طفلان يحاولان سرقتها، هي لا تستطيع الزود عن عيالها، ولكنها نالت العزة في تواضعها كعجوز كريمة حدباء يتيمة، تلك الشجرة كانت تستحق أن ألحظها، لم أستطع أن أحدد هل أشعر تجاهها بالحسد أم بالشفقة، فهي رغم عظمتها لا ترى قرص الشمس كاملًا إلا بقدر ما تسمح لها جاراتها الهيفاوات، أخبرني سائق السيارة أن تلك الأرض الواسعة تحمل عليها الرمال في كل عام فلا تبور، كأنها تبتلع الرمال فيستحيل أرضًا طينية، هنا كل شيء ترابي، يسمونها الأرض السوداء،

هي مع ذلك لا تنبت إلا النخل، ولا تشرب الكثير من الماء، البائعون على طرفي الطريق يخبرون قصصًا عن سحر قديم طال تلك الأرض عندما قتل صاحبها زوجته العقيم لأنها رفضت زواجه بأي امرأة أخرى، فتنبت الأرض نخلًا يحرس النخلات العقيمات المتناثرات المحميات بسيقان العفي من النخيل، ثم التفت إلي متسائلًا عن وجهتي:

- لنقل أنني أريد أن أنهي حلمًا قديمًا لأنبت أرضًا سوداء كتلك الأرض.

عندما وصلت إلى المدينة الساحلية لم أجد من يرشدني في طريقي لذلك قررت العروج على أحد المقاهي والاستراحة قليلًا من تعب السفر، فنجان من القهوة بين يدي وجلستي على مقعد خشبي وسط الغرباء عن ناظري في تلك المدينة البعيدة سيجعلانني أشعر ببعض من الألفة والمنطق في سفري هذا، أتنفس سريعًا، ولا أكاد أستطيع التقاط أنفاسي، أشعر كأنني قد انتهيت من الجري للتو ...

نعم، أنا هنا بالفعل، لا شيء يدعو للريبة ولا للقلق.

ينظر الجميع إليَّ باستغراب، حتى أن حقيبتي طالتها الكثير من النظرات الفاحصة، أؤكد لكم أنني شخص عادي، جئت

فقط لتحقيق حلم قديم، هكذا قلت محدثًا نفسي في صوت هامس، أحد الرجال كان ضخمًا كأنه لم يقم من فوق كرسيه منذ شهور، يقطع أنفاسه صوت شخير يقظة عفوي يدل على مرضه، شاربه كان ثقيلًا وكان أوضح من جثته الضخمة، لم يكن عليَّ أن أتأمل فيه كثيرًا حتى يقترح مساعدتي ...

- أهلًا وسهلًا، أنت لست من هنا، صحيح؟

- جئت باحثًا عن أحد الصيادين.

- أحد بعينه؟

- شيخ الصيادين.

- أتعرفه شخصيا؟

- لم يسبق لي مقابلته ولا أعرف اسمه.

- يمكنني أن أتوسط لك عنده كي تقابله ولكن ...

- ولكن ماذا؟

- عليك أن تدفع.

- لك هذا.

...

كان علي أن أدفع ثمن غربتي وما دام الثمن هو المال فلا ضرر في ذلك، كان ذلك الرجل نوع خاص من السماسرة يبيع لك وقته فتشتريه، وأنا في حاجة إليه ولم يجبرني أحد على ذلك، هكذا أذعنت ودفعت له ما طلبه، لكن شيخ الصيادين لم يكن بالسهولة التي يمكن أن يتخطاها أحد السماسرة، فكيف له أن يقنعه بأن يصطحب أحد المتطفلين أمثالي في مركب صيده الخاص في رحلة بحرية محفوفة بالخطر والزمن والرزق، من يملك الوقت للاهتمام برغبتي الخاصة في رحلة تبقي بطون عشرات الأفراد شبعانة لا تشكو الجوع ولا ألم الاشتهاء ...

في طريقنا إلى المرسى حيث يوجد شيخ الصيادين كان علينا المرور بسوق السمك، الممر كان ضيقًا متسخًا بقشور الأسماك ورائحتها، كسرات من الثلج في كل مكان، صوت قطرات الماء المرتطمة بالأرض عند كل صندوق خشبي تكاد تقضي على الصمت الذي يسود في لحظات كلل البائعين من النداء على المشترين، كان هناك بائع مبتور الذراع اليمنى، ينظر نحو السماء فتبرز تفاحته فيصيح بأعلى صوته الخشن الثقيل حتى تنتفخ عروقه عابسًا لا يغمض عينيه في وجه الشمس، حتى إذا انتهى

ابتسم وأراه قد أوشك على الضحك بل إنه قد قهقه في النهاية بينما كنت مارا بجانبه، بعد خطوات عاد صوته الخشن الثقيل ينادي بأقصى قوته، أراه منتفخ العروق عابسًا في وجه الشمس حتى وقد انتهى السوق وتهنا بين البيوت الصغيرة المتراكمة، عندها بدأت رائحة البحر تفوح من كل مكان، كأن تلك البيوت التي تعاني من تساقط أدهنة واجهاتها تتنفس نسيم البحر، هي تمتصه باردًا وتطلقه دافئًا طيبًا لا ينبئ إلا بالطمأنينة، كيف لها أن تحيل غدره إلى دفئًا طيبًا؟ ! لا أدري ولكن لم يتركني السمسار حائرًا لفترة طويلة، أفزعني بصوته الجهوري فجأة بينما كنت أتململ خائفًا من بطش نوى البلح التي تتقاذفها الأطفال في لعبهم، فالطفل الذي مررت به قبل خطوتين كان مختبئًا خلف صفيحة وقود فارغة يقذف بيديه النواة كطلقة سريعة على صاحبه المختبئ وراء مصطبة متهالكة، طلقة واحدة من تلك تكفي أن تفقأ عين صديقه بغتة ...

ـ يا أستاذ، ما اسمك؟

ـ آدم.

ـ ماذا تعمل؟

- كنت أعمل صحفيًا حتى الأمس.

- وماذا حدث؟

- استغنوا عن خدماتي.

- لا يجب أن تذكر ذلك لشيخ الصيادين.

- لماذا؟

- ربما لن يقبل بوجودك بدون سبب مقنع.

- لن أكذب.

- ستخبره أنك هنا لتعد تقريرًا صحفيًا عن رحلات الصيد ومشاكل الصيادين.

- ولكني لست هنا من أجل تقريرا صحفيًا.

- لقد نصحتك والقرار بيدك.

...

لا يمكنني الكذب فهذا سيجعلني أتظاهر طوال الرحلة بأنني ما زلت صحفيًا، ويجب أن أمسك الورقة والقلم وأدون الكثير من الكلام كي لا أثير الشكوك في سبب وجودي، ولكن لا أدري هل سيقبل حقًا الاستجابة لرغبتي الطفولية في رحلة بحرية مع شيخ الصيادين، كانت تستهزئ نورًا برغباتي الطفولية الكثيرة لدرجة أنني كرهتها وكرهت مجرد التفكير في أي رغبة ملحة، أردت

دومًا أن أستوقف بائع غزل البنات وأشتري منه كل ما يحمله وآكل منه الغزل ذا اللون البمبي في الشارع بلا أي خجل، لكن كان عليَّ أن أتحجج بنورًا في كل مرة،

أتريدين أكل غزل البنات؟ لقد اقترب البائع.

متأكدة أنك لا ترغبين في بعض من ذلك الغزل البمبي؟ لقد أوشك البائع على الابتعاد ولن يمكننا اللحاق به، قرري سريعًا، إنه لا يمر كل يوم من هنا، لكنها كانت دومًا ترفض، هي لا تحب غزل البنات وأنا أحبه، كان عليَّ أن أتحجج بها، فرجولتي قد تندثر في عيونها لو جريت وراء البائع وعدت لأجلس إلى جانبها في المقهى مستمتعًا بهبرات الغزل بعيون لامعة كطفل نهم، ولكنها لم تحتج لكل ذلك كي تقرر أن تبتعد عني، فلا يمكنها البقاء إلى جانب رجل يحمل روح طفل، طفل يخشى الكذب ويريد التنقل وراء الألوان الزاهية كفراشات الرابيع، نورًا كانت الاختيار الوحيد لي في تلك الحياة، أحبتني بلا سبب ورأت أنني الوحيد الذي استحق أنوثتها، غمرتني دون جهد مني بعشقها، ولم أجد مفرًا من حبها، حتى وظيفتي هي التي أتت لي بها، لم أقاسِ كثيرًا في حياتي بسببها ولكنها عندما قررت الابتعاد عني، هويت، كأن ظهري قد انقسم، رغم

كونها أنثى إلا أنها كانت درعًا يحميني ويقويني على الدوام، لم أدرك أنني لم أحتضنها بقدر ما أمدتني بالدفء إلا بعد رحيلها، رحلت وتركتني أصارع الفاسدين وأحمي الفضيلة بطفوليتي المعهودة، وكأني قادر على أن أصارع أحدهم بيدي الفارغة، متصورًا نفسي بطلًا قويًا لا يخشى إلا بكاء المستضعفين، كنت أحيك حياتي كطفل ربط منشفته الكبيرة حول رقبته كبطل خارق واقفًا أمام ظله يصارعه، لم أقدر يومًا على أن أتخلص من ظلي، حاولت بكل الطرق، ولكنني حتى عندما كنت أمر بأرض شديدة السواد أراه جليًا حتى وهو غائب في ظلمتها.

في البداية كان مسموحًا لي أن أكتب عن كل شيء، طالما كنت صغيرًا مغمورًا فلن يهتم الكثير لما تكتب، يمكنك أن تتحدث عن مصنع أغذية مسرطنة، يمكنك أن تتحدث عن رجل أعمال محتكر، أمين شرطة يستغل سطوته على منطقته السكنية، عصابة مخدرات في أحد المناطق الشعبية، طوابير العيش والفقر والزواج المبكر وختان الإناث، كان كل شيء متاحًا، فلا قيمة لأي جريدة دون التحدث عن بعض الفساد والجريمة والجهل ولكن كل بمقدار، كل شيء محسوب، كان عليَّ أن أكتب كثيرًا لأن

الجالسين في المكتب الذي يحول بيني وبين رئيس التحرير يقومون على تنقية وتصفية وتنقيح وتعديل أو إلغاء أو رفض ما يصل إليهم ، ربما مجهود شهر كامل سينتهي إلى سلة المهملات ولكن على الأقل كان هناك الكثير من الأشياء التي يتم نشرها ، أما الآن عندما صرت استخدم شهرتي كي أتحدث بلا حاجة للمرور على محطة التصفية فإما يتم قبول ما أكتب أو رفضه ، ورفضه يعني أنه لم يعد مرحبًا بي في ذلك المكان بعد الآن، لا أقدر أن أحمل طوقًا من الورد وأكلل به أي رأس لا تستحق ، أنا لست مضيفًا إلا للمستضعفين ، ولا أحمل لهم إلا ورد العزاء ، طيلة عشر سنوات حاملًا الورد لهم وفجأة يريدون مني أن أرمي الشوك على أيديهم المغلولة وأتوج الباطش بكل دناءة بجحة ... أنت طفلي المدلل ... نورًا ... لا يمكنك أن تنصر الضعفاء ... أنت تعيش على مآسيهم ، تخيل عالمك بدون زوجة تتعرض للتعذيب وأخرى تتعرض للتحرش وطفل يتم اختطافه وعامل مصنع تُقطَع يده فيتم تسريحه من المصنع بتاريخ قديم ، لن تجد ما تكتبه ، كما أنك تترفع عن كتابة عنوان يقول "تمكن الوزير فلان من زرع بذرة تنموية غير مسبوقة في أنحاء الدولة "، لم أنصر ضعيفًا

طيلة عشرة سنوات صدقت هي وكذب قلمي ، أتكتب عن المستضعفين ليقرأوا عن أنفسهم أم تكتب عن المستضعفين ليظن الآخرون أنهم يقرأون قصصًا خيالية ، والآن أسير منكس الرأس بلا نورا تدللني كأمومة الأرض للبشر ولا نصرًا أتعكز عليه كوتد يصلب جسدي المتهاوي ، كطفل تائه لا يتذكر إلا رغبته في خوض البحر ، وأخشى ألا تحتمل روحي المدللة قسوته ...

لكزني السمسار في كتفي لافتًا انتباهي لوصولنا للمرسى، فوجدت غايتي كسلحفاء بحري صغير وصل أخيرًا لمياه الشاطئ، مشيرًا لعشة منصوبة على الشاطئ:

- في تلك الورشة ستجد شيخ الصيادين، كل ما عليك فعله أن تسأل عنه، اسمه "الريس قباري".

- أين ستذهب؟! لقد وعدتني بأن تتوسط لي عنده.

- "الريس قباري" لا يطيق رؤيتي.

مادًا يده لي:

- هات خمسين جنيهًا.

أخذ النقود ثم مضى عائدًا للمقهى تاركني في حيرة، صاح بعد ثوان:

- تذكر "الريس قباري"، أنت صحفي".

وأشار لي بيده مودعًا!

هذا ما كان ينقصني، نكث وعده على بعد خطوتين من إتمامه، سرت نحو العشة بخطى بطيئة فقد أرهقني المشي، قابلت في طريقي أحد الرجال فسألته عن الريس قباري فأشار لي نحو مرفأ طويل تحيطه قوارب الصيد من الناحيتين.

أسير جاذبًا حقيبتي ذات العجلتين على المرفأ الخشبي لاعنًا السمسار الذي لم أعرف حتى اسمه وقد تركني على بعد خطوات من الريس قباري الذي قد يطيح بحلمي بكلمة رفض واحدة بعد كل ذلك الشغف الذي عاد لامعًا في عيني، اختلطت الأصوات بين صوت عجل الحقيبة على ألواح المرفأ الخشبية وأصوات الجواكيش والمطارق والمفكات، أصوات الصيادين وعمال الصيانة، أصوات المواتير التي يتم فحصها، والقوارب التي تتصاعد وتهبط على سطح الموج الهادئ كأنها تتنفس بنسيم البحر، معظم القوارب كان لونها أزرق أو أخضر إلا قاربين كبيرين جمعا بين الأبيض والأحمر يحملان الكثير من عوامات النجاة البرتقالية، الوقت ظهرًا والشمس قد ارتفعت في وسط السماء الصافية، قيظ الصيف يختفي مع نسمات

البحر البطيئة التردد في ذلك الخليج الصغير الذي تجتمع فيه قوارب الصيد.

ماشيًا نحو نهاية المرفأ الطويل، تتسارع دقات قلبي وأشعر كأنني أصغر وتكبر الثياب عن جسدي وأتضاءل حتى يصبح حجمي بحجم حقيبتي وعمري قد نقص ربع قرن على الأقل، في نهاية المرفأ وجدت رجلًا مسنًا نحيفًا يرتدي معطفًا أسود متربًا باهت اللون لا يليق بجسده الهزيل ورأسه غارقة في طاقية الصيادين البيضاء، موليًا وجهه ناحية البحر جالسًا على حافة المرسى مدليًا رجليه يؤرجحهما كطفل صغير، لم يشعر بي رغم صوت الضوضاء الذي أحدثته حقيبتي الجرارة، سألته أين يوجد الريس قباري فأجابني بصوت غير واضح ولكنني ظننت أنه قال أنه هو الريس قباري، أعدت عليه السؤال فقال بصوت رقيق ولكن أوضح من المرة السابقة "أنا الريس قباري".

تلك صدمة لم تكن في الحسبان، لم أتخيل شيخ الصيادين بهذا الحجم ولا ذلك الصوت، ولا حتى تلك الملابس، ثم أين الشارب الثقيل الذي يملأ الوجه كما كان يملأ وجه السمسار؟!

نبهني سؤاله عن سبب بحثي عنه لكوني قد سرحت بعيدًا ولم أرد عليه لعدة ثوان، فقد ظهرت على وجهه البارز الوجنتين ملامح الغضب السريع، كان عليّ أن أتدارك الموقف سريعًا متجاهلًا كوني أملك خيالًا عاجزًا لا ينتمي إلا للأفلام القديمة ...

- جئت هنا لأطلب منك أن تصحبني في رحلة صيد على قاربك الخاص.

- وما السبب في رغبتك في حضور رحلة صيد؟!

- أنا صحفي ولكن أتيت إلى هنا لتحقيق حلم قديم.

- ولكن القارب لا يتسع لحلمك القديم، القارب هنا يتسع للباحثين عن الرزق.

- يمكنني أن أدفع لك.

(هنا عاد الغضب سريعًا على وجهه، منتفخة أوداجه والشرر من عينيه أصابني بالخجل).

- أقصد تعويضًا عن الجهد الذي سيكلفه وجودي على القارب.

- أنا لا أتقاضى المال إلا من بيع السمك، إن أردت الصعود على القارب فيجب أن تدفع للصيادين.

- كم سيكلف الأمر؟

- ستعلم كم سيكلف الأمر ولكن تأكد أنه لن يخدمك أحد على متن القارب.

- طبعًا.

- هل تجيد السباحة؟

- أستطيع الطفو.

- جيد، ما اسمك؟

- آدم.

- اجلس وانتظر.

- ...

تركت حقيبتي وجلست على طرف المرسى كما يجلس الريس قباري، فاجئني حين رأيت بيده الأخرى زجاجة بيرة، يشرب منها على مهل ويظهر مع كل رشفة منها تغير ملامح وجهه المتألمة من طعمها، خشيت أن يلاحظ مراقبتي له فنظرت إلى البحر واستمتعت بأرجحة رجليَّ فلا تواتيني فرصة كتلك كل يوم، كان الجو دافئًا والمياه مذهبة رقراقة، ولا شيء يدفع الحياة إلى الجنون سوى سحر ذلك المشهد.

...

مرت ساعة أو أكثر، لست متأكدًا فعقلي قد سهم في التفاصيل، جاء أحد الصيادين إلى الريس قباري وأخبره أن قوارب الصيد جميعها جاهزة للإبحار، فأخبره عني وأنني سأصحبهم في رحلة الصيد وأمره أن يصحبني للقارب.

- أهلًا يا أستاذ آدم، أنا سيد.

- أهلًا بك.

- ماذا تعمل؟

- صحفي.

- حلت علينا البركة.

- شكرًا جزيلًا.

- إن أردت أي شيء، فقط أخبرني به، أنا تحت أمرك.

حاولت أن أشكره مرة ثانية ولكنه قد قفز بحركة بهلوانية إلى القارب وناولني يده كي أصعد ولما مددت يدي له تذكرت أنني قد نسيت الحقيبة عند نهاية المرسى، أخبرته أنني قد نسيت حقيبتي وأنني سأعود لأحضرها، ولكنه أقسم بكل عزيز أنه لا يصح أن أذهب وأنه سيذهب ليحضرها بنفسه، لم أقدر على مجاراته ولكنه عاد بعد

فترة إلى جانب الريس قباري منكس الرأس خجلًا من النظر إليَّ.

أخبرني الريس قباري أنني لو أردت الصعود على القارب عليَّ أن آتي بحقيبتي من نهاية المرسى وأنه سينتظر لدقيقتين فقط وبعدها سيفكون الحبال وينطلقون، ثم أدار وجهه لمساعده ليرن بوق قاربه معلنًا تدوير محركات الأسطول، حاولت أن أحافظ على ما تبقى من هيبتي فمشيت بخطى سريعة مانعًا نفسي من الجري ولكني عندما وصلت إلى الحقيبة لم أجد ما تبقى من الوقت يكفي لأجر الحقيبة حتى القارب فحملتها بين يدي وجريت مسرعًا، وصلت قبل فك العقدة الأخيرة بلحظة، رميت بالحقيبة داخل القارب وأمسكت بطرفه متشبثًا بأقصى قوتي صاعدًا بقدمي على أحد عوامات النجاة، لامست قدمي أرض القارب بينما كنا على بعد مترين من المرسى، لقد نجحت في الاختبار وتبددت هيبتي، لا يختلف الريس قباري كثيرًا عن رئيس التحرير، كلهم قادرون على أن يبددوا هيبتي دون عناء، أشعر نحوه الآن بالحنق والغيظ ولا أدري كيف استطاع ذلك الرجل أن يدمر صورة شيخ الصيادين التي احتفظت بها منذ طفولتي في ساعتين!

كان علينا أن نقضي نصف يوم للوصول لمكان الصيد، يبدأون الصيد بعد شروق الشمس عادة، ويصطاد كل قارب بشبكة واحدة ذات طرفين، يجر القارب الشبكة ورائه التي تجمع السمك بداخلها ثم بعد ساعات يتم سحبها والقارب يتحرك كي لا تهرب الأسماك، كان عليَّ أن أساعدهم في نقل الشبك والانتظار بجانب الأطراف المربوطة لساعات أراقبها كي لا تنفلت كما أمرني الريس قباري، ثم كان الجهد الأكبر عندما كنا نجمع الشبكة التي كانت أثقل مما كنت أتوقع، عندها يجب تفريغ الشبكة وحمل السمك الحي ورميه في براميل وصناديق مليئة بالثلج، كانت أول مرة أمسك سمكًا حيًا، أتذكر جدتي عندما كانت تصر على أن تطبخ لنا القراميط، كانت تأتي بها حية وتقطع رأسها وهي تتراقص بين يديها، طلبت مني مرة أن أجرب ولكني كنت أخشى أن يعضني ذلك القرموط الحي.

في نهاية اليوم كنا قد انتهينا من الصيد وأتى موعد الأكل، لم أعد قادرًا على فعل أي شيء وأشعر بالتقزز من قشور السمك التي ملأت ملابسي والجروح والخربشات التي أصابت ذراعيَّ وكفيَّ، أشعر أيضًا بالبرد الشديد، فتحت حقيبتي وأخرجت الملابس الثقيلة ولكنها لم تجد نفعًا، كنت

أرتعد من البرودة التي سرت في جسدي، فأنا لم أعتد ذلك القدر من الجهد والهواء البارد في حياتي كلها، أحضر سيد لي ساندوتشًا من الحلاوة وابتسم قائلا : "أحسنت عملًا يا أستاذ آدم، هذا ....."، فقاطعه صوت الريس قباري يأمره بأن يذهب ليبدل دورية مكان محمود سائق القارب.

من المؤكد أن الريس قباري لا يحتمل وجودي، ولكنني على الأقل قد وصلت هنا، شاركت في الصيد، وعلى متن قارب شيخ الصيادين، وفي وسط البحر، أنا هنا بالفعل!

...

الريس قباري بعث لي بأحد الصيادين ليناديني، رأيته جالسًا على وسادة جلدية قديمة يظهر باطنها من طروفها المهترئة، ويشرب سيجارة بحرقة، أنا في حاجة لمثل تلك السيجارة الآن لولا أنني لست مدخنًا.

- تفضل يا أستاذ آدم - مشيرًا لحصيرة ملمومة.

- أخبرتني أنك صحفي، أليس كذلك؟

- صحيح.

- لم أرَ صحفيًا منذ غرق قارب الريس زاهي، تأتون لتكتبوا عنا وتتقاضون أجوركم في المقابل، أما نحن!

لا أحد يهتم بنا، هناك مصنع مشيد على البحر، يرمي بكل قذارته فيه، عندما نمر بالقرب منه نجد السمك طافيا على السطح، ميتًا بالطبع، أتى أحد الصحفيين منذ عشر سنين والتقط صورتين ثم ذهب، والآن يقوم المصنع بتوسعات جديدة!

- لقد كنت صحفيًا ولكني الآن مطرود من عملي.

- ولماذا طردوك؟!

- لأنني لا أكتب سوى أخبار كتلك التي ذكرتها.

- ولكنك لا تفيد أحدًا، أنت لا تفعل شيئًا سوى أن تتغذى على وجودنا.

- حاولت أن أغير الفساد بفضحه.

- الفساد يحب أن يُفضح، فليس هناك بعد الفضيحة إلا التعايش.

- ولكنني حاولت ..

- لكنك لم تغير شيئًا.

- وماذا فعلتم أنتم؟!

- نحن لا نفعل شيئًا سوى البحث عن رزقنا، رزقنا أن نجمع الأسماك، أما أنت فرزقك أن تقاوم من يقتل الأسماك.

- يمكنني أن أشتري السمك الطازج من السوق.
- ويمكنك أن تصطاد السمك الميت وتضعه في الثلج وتخبر الجميع أنه صيد اليوم.
- أنا مجرد ناقل أخبار، في كل مكان أذهب إليه أكون مجرد عابر سبيل، أحمل الرسالة وأمضي.
- وأين تذهب رسائلك؟!
- إلى المطبعة.
- وتبتلع السمك المشوي على موائد الآخرين.
- ولكنه ليس ذنبي، إنه ذنبكم، أنتم من تعيشون هنا.
- لي زوجة تقوم بغسيل كلوي كل أسبوع، أتعلم كم تحتاج من المال، أسبوع بلا صيد يعني موتها، هل ستعطيني مالًا كي أعالجها بينما أفكر في حل للسمك الميت الذي تأكله طازجا؟!

...

هنا توقف الحديث وارتفع صوت سيد منشدا:

يا ساهر على بحر السمك

املأ شبك المحبين

بارك للعاشقين موجك

اسهر على ولادنا الطيبين

ولا ترمينا بلوم المحبين

عتاب الضمير لا يحتمل

...

بينما كنت جالسًا بصحبة الريس قباري طلبت من سيد بعدما انتهى من انشاده بأن يوقظني عند شروق الشمس لاستمتع بما تبقى من رحلتنا قدر الإمكان، فلم يتح لي الوقت لمراقبة شروق الشمس في باطن البحر فجر ذلك اليوم ...

الأرجوحة كانت قوية عنيفة متوحشة، أقسم أنها حاولت قتلي وسط ذلك البحر، على متن ذلك القارب.

أيقظني الريس قباري حاملًا في يده ساندوتش من الحلاوة مبتسمًا قائلًا:

"كان هناك طفل يريد أن يصبح طيارًا ولكنه لم يركب إلا البحر ولا يجيد قراءة الصحف حتى الآن".

❁❁

ربع الحظ

كان اليوم سيئًا لدرجة الاختناق، بدأ باعتصار أمعائي ألمًا ونقرها دفوف الاضطراب، ومر بتضييعي لموعد الحضور وشطب المدير عليَّ، وانتهى بضياع مائة جنيه كانت ستكفيني أسبوعًا كاملًا، أما الآن فلا طاقة لي تعينني على العودة إلى المنزل، على أن أغسل همي قبل أن تستعر نار الصراخ في المنزل، من تلك السيدة المصون – زوجتي - التي ستمنحني بكل جنيه ضائع صرخة مدوية تُمَوِّج الدماء في عروق دماغي، لن أفرط فيما تبقى من عقلي، حجر واحد من المعسل سيمنحني القليل من الصبر والمزيد من الوقت ...

سأجلس في أول مقهى بلدي تقابلني، سيمر الوقت سريعًا لو كان هناك تليفزيون أو راديو، تلك المقهى تبدو مناسبة، ممممم، اسمها "أذعرينا!!!!" لا يضر.

...

ينزوي في وسط المقهى على مقعد وحيد وطاولة صغيرة ويطلب نرجيلة المعسل وكوبًا من القهوة - سكر زائد -

لعلها تعطي لذلك اليوم بعضا من حلاوتها، يؤتى له بالنرجيلة والقهوة، فيبدأ بشد الأنفاس بينما يتأمل من حوله في المقهى.

لم يكن نظره للآخرين يسترعي انتباههم فليس هناك مفر من النظر للآخرين، فقد كانت المقهى ضيقة بحق وطويلة كعلبة الكبريت الواقفة على جانبها، شد عينيه مجموعة من الناس يلعبون الكوتشينة، كانوا ستة من الرجال متوسطي العمر يقاربونه سنًا في منتصف الثلاثينيات، يضع خمسة منهم بشكل غريب أجهزة المحمول أمامهم بينما لا يظهر من سادسهم إلا ظهره ويده اليمنى التي يقلب بين أصابعها ربع جنيه فضي بشكل منتظم لا تتوقف معزوفته عن التكرار!!!

...

ربع جنيه!!!

هو نفسه، نفس حركة الأصابع، نفس الطريقة.

سيد زعتر الذي أضاع طفولتنا، ذلك الشقي الذي كان يجلس في الظل بينما نقفز من فوق الأسوار ونزحف داخل الحفر ونتسلق الأشجار وتُقطَع ملابسنا وتتورم أجسادنا المخدوشة لو أمسك بنا أحدهم، كان فتوة بحق، لم يكن

أحدنا يجرؤ على رفض أوامره إلا بقليل من زمجرة الاعتراض التي تنتهي بركلة أو صفعة عادة، لكن ما كان يجعلنا حقًا نقبل على طاعته هو الرغبة في الفوز بالغنيمة!

يخلق من الشبه أربعين، ربما اختلط عليَّ الأمر.

...

يمر الوقت ويستمر الرجال في لعبهم، حين بدأت الأوراق تتساقط على الطاولة بدا الوجوم رويدًا رويدًا، وبدأت شمسه تسطع على وجوه الخمسة رجال، إلا الرجل السادس استمرت يده في تقليب الربع الفضي دون كلل أو توقف، ثم أخيرًا رموا بالورق أمامهم وتراجعوا جميعًا للوراء منكمشين في مقاعدهم بينما تسحب يد الرجل السادس كل الهواتف ناحيته!

...

لقد كانوا يلعبون على الهواتف، لقد فاز، لقد حصل على كل شيء!

لا بد أنها ليست صدفة، الربع جنيه الفضي، نفس اليد اليمنى لسيد زعتر الأيسر، ونفس الطريقة التي كان يحصد بها الغنيمة، ووجوههم هي نفس وجوهنا الخاسرة منذ ربع قرن، سيد زعتر الذي كان يكبرنا بثلاث سنوات ولكنه

يقضي السنة في سنتين ولذلك لحقنا به في السنة الابتدائية الخامسة، التي وصل لها في أربع سنوات بعد مرور سالم في السنة الأولى والثانية وكانت مرته الثانية في السنة الخامسة هي مرتنا الأولى فيها!

كان يجلس في آخر الفصل، يقضي وقته نائمًا كثيرًا ما تجد مدرسًا يطلب منه على استحياء أن يكف عن الشخير، فقد كانوا يهابون قلة أدبه ولا يتمنى أي مدرس أن يقلل أحد من شأنه وإلا صار أضحوكة المدرسة!

سيد كان مخيفًا بحق كان يكبرنا سنًا وحجمًا وصوته غليظ وشاربه قد خط سواده على وجهه، لكن كان ودودًا عند لعب الورق، في البداية كنا نلعب بلا مقامرة، وكان يسمح لنا بالفوز مرات قليلة، حتى نشعر بنشوته، لكن كان يكتفي أن يهدم أحلامنا بهزيمة ساحقة قبل أن نشعر بأننا أفضل منه، كنا نتباهى بعدد مرات فوزنا، كان التصنيف يأتي دائمًا بعده، فهو صاحب الورق وهو المُعلِم وهو الرابح الأول، أما نحن فنأتي بعده في تصنيف آخر بشكل يجعلنا لا نشعر إلا وكأننا سواسية، لم يكن يجرؤ أحدنا على معايرة الآخر بعدد مرات فوزه، فكل أنظارنا كانت تتطرق نحو هزيمته الجالس على عرش الورق متربعًا، ينظر إلينا

بعين العجوز الحكيم الذي تكفي نظرة منه وكلمة مديح في حق أحدنا لتجعلنا نشعر بالفرحة لأسبوع كامل، كان دائمًا يحمل ربع جنيه فضيًا يقلبه بين أصابع يده اليمنى بلا توقف حين نبدأ في اللعب، ذات مرة سألته لماذا تحمل ذلك الربع الفضي دائمًا، رد "ذلك ربع الحظ، شيء لن يفهمه أمثالك !"، بعد مرور شهور وكنا قد اعتدنا على اللعب والهزيمة والرغبة القاتلة في هزيمة سيد زعتر، توقف عن اللعب ومنع عنا أوراقه، كان يكتفي بالنوم الطويل والشخير والشزر لكل من حوله، توسلنا إليه أن نلعب الورق، حتى أننا قلنا له اطلب أي شيء، سنعطيك طعامنا، سنغششك في الامتحانات، أي شيء!!!

فما كان منه إلا أن ابتسم ابتسامة الظفر، وأمرنا بانتظاره بعد انتهاء اليوم الدراسي.

انتظرناه أمام المدرسة وطال انتظارنا لمدة ربع ساعة حتى أننا بدأنا في التفكير في إجابات عن سبب تأخرنا عن العودة لبيوتنا، وأخيرًا ظهر، مر بجانبنا ولم يتوقف ولم ينظر لنا، فمشينا ورائه، وأخيرًا بعد الكثير من المشي وقف أمام حديقة واسعة مسوّرة وسورها معلق عليه اللبلاب، ويظهر من خلفه أطراف الكثير من الأشجار،

بدأت الحيرة والتساؤلات تضطرب في عقولنا، موليًا ظهره للحديقة ووجهه لنا، سألنا سؤالًا واضحًا : أتريدون اللعب؟

فقلنا بصوت واحد: نعم.

- من يأتيني ببرتقالة من خلف ذلك السور سأسمح له باللعب.

- ولكن!

قالها أحدنا فأوقفته صفعة سيد على وجهه عن الاستمرار في الكلام.

- أنا لن أجبرك على شيء، إذا أردتم اللعب فليأتني كل واحد منكم ببرتقالة من داخل تلك الحديقة.

ثم تركنا ورحل!

درنا حول السور بحثنا عن أي فتحة فلم نجد غير بوابة مغلقة بقفل حديدي ، طمأننا ذلك كثيرًا وقفزنا من فوق السور ، كان كل ما نفكر فيه أن يرضى عنا سيد ويسمح لنا باللعب ، عدنا إلى منازلنا في ذلك اليوم فرحين شاعرين بالظفر ، غدًا يوم نعود إلى اللعب ونهزم سيد ، مخبئين البرتقال في حقائبنا وخاشين عليها من التلف أو الافتضاح ، حتى أننا ذاكرنا باجتهاد في ذلك اليوم كي لا يفتش أهالينا

في حقائبنا عن واجبات مهملة ، لقد نمت في ذلك اليوم وحقيبتي في حضني ، من حسن الحظ أننا كنا في الشتاء فلم يلحظ أحد ما فعلته!

في اليوم التالي اجتمعنا حول سيد الذي جلس معنا للمرة الأولى منذ أسبوعين ، وأخرج كل واحد منا برتقالته ، أخبرنا سيد أنه فخور بنا وأنه لن يأخذ البرتقالات بدون مقابل ، لكن سيلاعبنا عليهم ، ومن يفز يحصل عليهم ، اليوم زادت همومنا ، فاليوم لا نطمح فقط في هزيمة سيد بل الحصول أيضًا على كل البرتقال!

لم يسمح لنا سيد بالفوز ، كنا نأتي بالبرتقال وهو يحصل عليه بكل سهولة كالمعتاد ، أصبحت الحديقة مزارنا الدائم حتى أنه عندما خلت الأشجار من الثمر ، انتظرنا المحصول التالي بفارغ الصبر ، سيد لم يتركنا نشعر بالملل في انتظار البرتقال وسمح لنا باللعب وسمح لنا بالفوز في بعض الأحيان ، ولكن عندما يعود البرتقال على فروع الشجر ، تعود هزيمته الساحقة لنا ، ذات يوم لم ننتبه إذا ما كانت البوابة مغلقة أم لا، قفزنا بالداخل وبدأنا في البحث عن أفضل الثمار ، وفجأة تسمرنا في مكاننا ، فلقد انشقت الأرض عن رجل حاملًا فأسًا في يده ويصيح في وجوهنا

"ماذا تفعلون هنا يا حرامي أنت وهو؟ !" وبدأ في الجري ورائنا ، تسلقنا السور وبدأنا في القفز ، ولكن لحقت يد الرجل بقدمي وأمسك بها بقوة ، بدأت في الصراخ ولكنه لم يرأف بي ، سحبني بقوة داخل الحديقة وبدأ في صفعي وشتمي كأنه وجد بغيته أخيرًا، "أنتم من تسرقون المحصول منذ شهور وصاحب الحديقة يتهمني أنا ! لن أتركك إلا في قسم الشرطة".

صرخت كثيرًا وتوسلت أكثر ، سألني عن عنوان منزلي وساقني إليه من أذني التي كادت أن تقتلع في يده الخشنة ، يومها لم تنتهِ معاناتي بصفعه لي بل بالوجبة الساخنة من الضرب التي منحني إياها أبي في ذلك اليوم ، لم أذهب للمدرسة لمدة أسبوع ، علمت عندما عدت إلى المدرسة أنه تم فصلي لمدة أسبوع أنا وأصدقائي ولكن لم يشمل ذلك القرار سيد زعتر ، ظل كعادته يذهب إلى المدرسة ينام ويشخر ويخيف الجميع كشبح لا يمكن مساسه!

عندما عدت إلى المدرسة لم أعد للعب معهم ، ولكنهم عادوا جميعًا للعب ، تلك المرة كانت الغنيمة هي البسكويت المدرسي الذي كان الحصول عليه بالقوة أفضل وسيلة ،

قال لي أحدهم إذا كان البرتقال حوله السور فالبسكويت تمنحه لنا سيرة سيد نفسه، نحن أصدقائه والكل يهابنا!

لم أجرؤ على الانضمام إليهم فجسدي لا يحتمل مرة أخرى من الإهانة ، ولكنني كنت هناك أتطرق إلى حلقات لعبهم ، كان يسمح لهم بالفوز أحيانا ولكن كان كالعادة هزيمته لهم ساحقة!

...

انتهيت من القهوة ، وأعطيت القهوجي الحساب والبقشيش ، وقمت ماشيًا مارًا بهم في طريقي ، قال أحدهم: "طوال عمرك المُعَلِم يا معلم سيد"، وقال آخر: "منذ المدرسة حتى اليوم"، وقال ثالث: "منذ حديقة البرتقال"، وضحكوا جميعًا - هه هه هه.

❁❁

سباق الحمير

في بلدنا أسطورة ، والأسطورة لا تشيخ ، بل تتضخم حتى تبتلع كل الشك ، هنا في بلدنا الكل مفطور على الأسطورة ، الطفل في قريتنا أول ما يجري به لسانه حكاية الحمار الذي سابق حصان الملك ، وحصان الملك كان جد فتي ، إذا خطا خطوة يقطعها غيره من الخيول في خطوتين ، أما حمار قريتنا الذي رعى في حقولنا ، وجرى بين أكواز الذرة وعيدان القمح والتهم البرسيم حتى برزت عضلاته ، كان ضخمًا جدًا وارتفاعه يزيد عن مترين ، في البداية كان طليقًا لا يجرؤ أحد على الاقتراب منه ، حتى ظهر ذلك الرجل الذي لا نعلم له اسمًا يجري بجانبه ويأكل معه من الأرض، ويغني بصوت عذب:

يا مهر أبيض رامح في الفضا

سابق معي الكل

اغلب معي العدا

وفي يوم ظهرت فيه الشمس كما لم تظهر من قبل ، كأنها نظرت بعينها إلى قريتنا ، فألهبت الأرض وشربت الترع

فهرب أهل البلد إلى بيوتهم ، يشربون من خزين الماء نهمًا، وهروبهم ما سقا الشمس رحمةً ، ولا شفقة على أراضيهم ، وجلجل في شوارع القرية نهيق حمار خطوته تدق سطوح البيوت وتخيف كلاب الحراسة وتريب ديوك العشش ، الكل يخرج من بيته خائفًا، صياح الغريب على ظهر الحمار أذهلهم ، يقطع الطرقات كأنها أوراق يطويها ، وترمش العيون فيختفي من منحاها ونواظرها ، وهنا غابت الشمس مشفقة على قلوب هاجت في الرهبة ، سابق الحمار كل حمير القرية ، يخطون خطوتهم الأولى فيقطع خط النهاية ، تأتي أسرع حمير الإقليم لتسابقه فيعودون مدحورين بالهزيمة ، حتى وصل خبره إلى الملك ، الذي بعث بمبعوث إلى القرية يطلب الحمار وصاحبه إلى نزال عادل أمام الأشهاد في عاصمة البلاد ، فما ارتعب الغريب ولا ارتاب ، بل ذهب بنفس أبية ، ووقف في خط البداية: "إن كسبت تعطيني حق الجباية، وإن هزمتني تعطيني حق الحماية" ، فقبل الملك ضاحكا: "تهزم خيرة خيولي ، إنك لمجنون، لك ما طلبت وأكثر".

بدأ السباق عادلًا، الحصان يجري بجانب الحمار ، حتى صاح الغريب: "سابق معايا الكل" ، فضربت السرعة في

ركضه ، فكان النصر للحمار ، وما تراجع الملك عن كلمته ، رجع الغريب إلى القرية حاملًا الذهب ، يرمي في كل يد قطعة أو قطعتين ، صارت قريتنا أغنى قرية في البلاد ، والغريب اختفى مع مهره الأبيض يرمحان في الفضا.

وصلت حكاياته لنا ، يجري في حقول البلاد إلى جانب حماره ، يغنيان حتى يرقص الليل ، وإذا ضاقت بهما الأرض، أمر الغريب بحقه في الجباية ، لم تكن النهاية ، فالكل في انتظار عودتهما، إلى هنا، إلى هذا البلد!

...

واليوم في قريتنا يقام سباق الحمير السنوي ، تأتي الحمير من كل بلاد الإقليم كي تتسابق ، لكن لم يحدث أن فازت قريتنا في ذلك السباق يومًا!

تقف سيدة ثمانينية عجوز في نافذة بيتها العتيق ، الملطخ بالطين وموشوم بالجير صورة حمار طويل يقف برأسه بجانب النافذة ، والنافذة طوبية اللون قد تمدد طلاؤها حتى صار ترقيعًا لخشب أجرب ، وتتشبث بجدار النافذة بكامل قوة ذراعها النحيل وتشرأب وتجول برأسها باحثة عن ابن حفيدها، تنادي عليه بجل صوتها:

- يا سعد ..

- نعم يا جدتي ..

- انهض حتى لا تتأخر على السباق.

- لن تفرق كثيرًا، دائمًا نخسر.

- لا تقل هذا ، لا بد للغريب أن يظهر وعلى ظهر مهره يمرح ويسابق الكل.

يرتدي سعد جلبابه ويجري نحو مدخل القرية حيث يقام السباق، فجدته مبروكة دائمًا على حق.

...

في مدخل القرية تجمهر أهل القرية وزوارها ، تعزف المزامير والدفوف وعلى نغمها ترقص خيرة الخيول ، حتى حان موعد السباق ، فصمت الجميع واصطفوا حول الطريق ، ووقفت الحمير على خط البداية ، مستعدة وعلى ظهورها أصحابها ، تطلق رصاصة في السماء ، فتجرى الحمير ، تقطع الحمير خطوة فيسبقهم بخطوتين ، حمار صغير وصاحبه شاب غريب ، لا يضرب حماره الضئيل ولا يهمز بطنه ، فقط يصيح ، تجري الحمير خطوة أخرى فيسبقهم بأربع ، تقطع الحمير ربع الطريق فيقطع الحمار شريط النهاية ، فيصرخ الكثير من الصدمة ، ويصيح العمدة في العازفين "مزيكا "، ويجري الجميع على الحمار

وصاحبه قبل أن ينتهي السباق ، الجميع يبكون ، يتسابقون على مس الحمار ، وتقبيل قدم صاحبه ، من هو؟ من أي قرية؟ أكيد من قريتنا! مستحيل أن يكون من قرية أخرى.

هو الغريب والحمار ، الحمار ضئيل ليس كما في أسطورتنا ، ربما صغير في السن ولكنه يبدو عجوزًا، ربما من نسل الحمار الذي رمح في الفضا وسابق الكل وغلب العدا ، ويعلو الصياح والصراخ والبكاء ، ويقترب العمدة من الرجل ويهمس في أذنه:

- قل أنك من هنا وأن حمارك حفيد لحمار البلد.

- وأغلظ الأيمان أنا من هناك وهذا الحمار حفيد لحمار بلدنا.

- ستقول ما أخبرك به وإلا سأتركهم عليك!

- سأقول الحق، لا يمكن أن أكذب.

- لا تلم إلا نفسك!

...

يخطب العمدة في أهل القرية :

- الغريب رجع مع حماره سابق الكل وغلب العدا.

- لكن يا عمدة أنا لست من هنا.

- أكيد أنت لا تعي.

- يا عمدة هذا الحمار أعرفه أصله من الجد العاشر وأنا من آخر بلد قبل الحدود.

- من المؤكد أن جد هذا الحمار هو من نسل حمار بلدنا.

- لكن يا عمدة تلك ليست الحقيقة.

وقبل أن يكمل كلامه يأمر العمدة خادمه بأن يصطحبه للمضيفة:

- الغريب أكيد محتاج أن يرتاح.

يصيح الجميع طالبين البركة:

- الغريب ظهر والبركة ستعود على الكل.

ثم يصيح العمدة في فرقة العازفين بأعلى صوته:

- دق يا مزيكا.

❁❁

ضحكات قهرية

لا أستطيع النوم مرتاحًا، فكف عمدة المدينة ملتصق بوجهي ، وأسمع من بعيد ضحكات عزيزة وهي تقول: "كم أنت شقي أيها الضابط ، ابتعد من فوقي ، لا أستطيع التنفس وأنت ملتصق بنهديّ"، هذا المحظوظ دائمًا متسلط ويطيعه الجميع ويخافه الكل ويوم أن ينام أجده فوق جسد عزيزة ، عالية الصدر ومنتفخة الشفاه ، أما أنا كل ما أحظى به هو كف عمدة لا يفقه شيئًا سوى خطابات المناسبات الرسمية وقص الشريط الأحمر ، مرغم أنا على كل شيء ، حتى في نومي مرغم ولا سبيل للاعتراض سوى الصمت ، يفرض علي أن أهتز لمدة ثلاث ساعات وأن أدع هذا الرجل يتحدث عني بل ويرسم على وجهي ضحكات تملأ عيون المشاهدين بالإعجاب ، كوني ممثل أسير على حسب السيناريو لا يضرني ولكن كوني أضحك وأضحك وحين أتحدث يكون كلامي على لسان آخر هذا ما يضطرب في صدري ويصيبني كمدًا، فصوتي هو الصمت ولا يسمعه أحد غير عمدة المدينة والشرطي

المحظوظ وعزيزة عالية الصدر ، حاولت مجاهدًا ذات مرة أنا أمنع فمي عن الضحك حاولت أن أطبق شفتي على بعضهما ولكن محاولتي باءت بالفشل ، أرغمني المخرج على فتح فمي والضحك بصوت عالٍ ، فقررت أن أستعطف جمهوري العزيز الملئ بالشغف بضحكاتي ، سأبكي اليوم فتخبرهم دموعي بمأساتي الدائمة ولكني صدمت عندما اكتشفت أنني لا أملك القدرة على إفراز الدموع ، تملك منى الإحباط وقطب جبيني عمدًا نحو الأرض فتذكرت سجدات حارس المسرح وقت الفجر وهو يقول "الله أكبر "، لا أعلم من هو الله ولكن ربما هو من نستجديه فيستجيب ، سأشكو له في سري وأطلب منه أن يخلصني من قبضة المخرج وأن يجمعني بعزيزة إلى الأبد ، ألقيت بدعوتي نحو السماء كالزنبق يطير نحو الأفق البعيد ، بلا أمل في الاستجابة ، في يوم العرض المسرحي التالي ، أمرني المخرج بالاهتزاز كثيرًا حتى انقطعت الحبال ، وقطرت دماء على وجهي ولكنها لم تكن تخصني ، صرخ بعض المشاهدين وأغلق المخرج الستار وانتهى العرض، لا أعلم لماذا ولكن ربما استجابت السماء.

وجدت نفسي ملقى على خشبة المسرح لساعات وربما أيام ، حتى أتي ذلك الحارس وحملني مع عزيزة ووضعنا في صندوق من الكرتون ، علمت عندها أن الزنبق قد وصل نحو الأفق وعاد بمدد الله، لم تمر ساعتان حتى فتح أحدهم الصندوق ووجدت طفلة صغيرة تنظر إلى عزيزة بشغف وابتهاج ، حملتها بين يديها وأغلقوا الصندوق ، مشوا بعيدًا وأنا أسمع الطفلة وضحكاتها ، وعزيزة وهي تقول: "لقد أنقذتيني من السجن مع هذا المعتوه الذي يأبى الضحك والابتهاج" .... ظلام.

❁❁

ضربة على الرأس

ضربة على الرأس

ضربة بين قدميه

صفعة على وجهه الذي لم يمسه أحد منذ وفاة أبيه

صفعة على قفاه الذي لم يمسه أحد قبل اليوم

...

- اجرِ يا محسن، يظهر أن هذا الرجل من المنطقة.

- يا أولاد الكلاب ... أستاذ ماضي ... أستاذ ماضي.

صفعة على وجهه لا تفي بإيقاظه ... صفعة أخرى اهتزت لها رموش جفنيه ... صفعة ثالثة أظهرت بياض عينيه.

- أستاذ ماضي ... أنت بخير؟ ماذا حدث؟ سرقوك؟

- الورقة ... العقد.

كورقة منسية على الأرض ظهر أستاذ ماضي ، ملطخ وجهه بدم رأسه الذي لا يتوقف ، يقف فوق رأسه محمود سنان السكاكين ، يشير ماضي إلى جيب المعطف ، فينكفئ عليه محمود مفتشًا في جيب معطفه عن الورقة.

- تقصد تلك الورقة يا أستاذ ماضي؟

- لا تقرأها.

- أنا أمي يا أستاذ ماضي، لا أعلم زيد من عبيد.

- لا يمنع ... لا تفتح الورقة.

...

- غريبة ! تأخر على غير العادة ... اجعل العواقب سليمة يا رب.

بين نافذتين دار حديث:

- مساء الخير يا ست تفيدة.

- مساء الخير يا حميدة.

- أخبارك؟

- نحمده ونشكر فضله .. وأنتِ؟

- عايشة.

- عندك وقت نقعد ونشرب شاي؟

- منتظرة أستاذ ماضي.

تبتسم لها حميدة بنظرة خبيثة وتعض على شفتيها.

حميدة: أستاذ ماضي.

تفيدة: ما به؟!

حميدة: وصل، على أول الشارع.

دلفت تفيدة لشقتها وأغلقت الشرفة وتركت حميدة دون سلام.

- حِكَم!!!

حميدة: نورت يا أستاذ ماضي.

ماضي: نورك يا ست حميدة.

حميدة ضاحكة ضحكة مفعمة بالأنوثة: والنبي أنت منور.

حميدة: سلامة رأسك، ماذا حدث؟

ماضي: لا شيء، حادثة.

حميدة: ألف سلامة، عندي قطن وشاش، سأحضرهم لك.

ماضي: لا لزوم لذلك، أنا بخير ... شكرًا على تعبك.

حميدة: تعب! هو أستاذ ماضي واحد فقط لا غير.

تنتفخ أوداجه ويحمر وجهه ويجري لداخل البيت، يعلم أنه مقدم على موقف صعب ، سينتهي من تفيدة بورقة واحدة ويفوز بما تبقى من حياته في أحضان زوجته ، أخيرًا أصابت الوصفة وحبلت منه ، عشرة أعوام من الصبر ، وخمس من الكذب والخيانة ، وحان وقت الشكر ، وما شيء يبرئه من ذنبه غير تلك الورقة ، قد تقتله تفيدة ، وقد تموت تفيدة من الصدمة أو تنتحر ، لا يهم ، الأهم أن اسمه سيحمله طفله من بعده ، حتى لو بنت ، فبعد القحط أي غيث لا

يضير، يتلو المعوذتين ويستعيذ بالحي القيوم أن يستره وأن يبعد همزات الشياطين عنه في تلك اللحظة إلى يوم الدين.

...

تفيدة تدور في الحجرة ، تمسح كرسي ، تكنس سجادة ، تمسح نفس الكرسي ، تكنس نفس السجادة ، تعيد كي جلبابه المكوي ، تسخن الطعام الدافئ حتى لا يبرد ، تضع أحمر الشفاه وتعيد رسم حاجبيها وتتعطر بشذى الفل ، تتذكر بخور الصنوبر الذي يحبه ، تجري فتشعله عودًا في كل حجرة ، صوت خطواته يرتفع ، قهقهته المعتادة حين يقترب من الباب ، صوت مفاتيحه باحثًا عن مفتاح سعادته ، يفتح جنته الخاصة ، حيث الانتشاء ، تتوقف عن كل شيء وتعدو نحوه ، تنسى كل أحزانها وتترك للضحكة طريقًا جليًا لا يخطئ ... على غير عادته لم يقبل رأسها ولم يناديها توت توت.

سلام بلا أحضان ، صدمتها الضمادة على رأسه ، أمسكت بيديه ، أسندته حتى الفراش، ترقرقت الدمعات ، وبدأ النحيب:

- لماذا تبكين؟!

- أتسأل سيدة لا أحد لديها غيرك في الدنيا .. لماذا تبكين؟!

- سليمة .. لم أمت.

- ربنا يبعد الشر عنك.

...

حائر بين الخلاص والإشفاق ، هناك حاجز غير مرئي يمنعه ، تلك الطاقة التي تعترف بالحب ، كأنها تقذفه بكل ما تحمل جعبتها من ورود خالصة ندية ، دموعها التي ملأت وجهها ، نظرة الحنو التي تحيطه ، نظرة العشق التي تلتهمه.

- أجهز لك الحمام؟

- لا، أحتاج الراحة.

- أجهز لك الأكل؟

- جهزيه.

...

أستاذ ماضي، ظهر فأصبح ماضي، حفر نفسه في ذاكرة تفيدة، مخلصًا إياها من الهم والشماتة والأسى ، تفيدة اليتيمة الوحيدة العانس الفقيرة أيضًا، بكل شجاعة تحملت تلك الكلمات ، ولكن الشجاعة لا تكفي العوام وسط المحيط ، لا بد للصبر أن ينفذ ولا بد للحزن أن يسود ولا بد للعمر أن

ينقضي ، في حياتها كان ترقب عمرها الذي ينفذ ، شعر رأسها الذي تتخلله شعيرات بيضاء على مهل ، تتذكر الأولى والثانية والثالثة والأخيرة ، قسمات وجهها ذو ملمس الخوخ قديمًا وخرقة قديمة حديثًا، وجهها المشرق قديمًا ووجهها المشرق بالبودرة البيضاء ، أسنانها البيضاء وابتسامتها الناقصة بظلمة فراغ أسنانها المخلوعة ، تلعن الفقر كل يوم وتلعن وجودها كل لحظة ، حتى جاء على غير قصد ، كإشراقة شمس لم تشرق من قبل ، كنبي هدى الكون تسبيحًا ولم يقاوم سحر كلماته إنس ولا جان ، وقعت في محرابه ، هربت إلى قدسيته العصماء ، وما كان لديها خيار ، سوى الخيار الأوحد ، أن تستجيب لفحولته وتذيب جبال الأسى التي لازمتها حياتها ، تشعر كأنها ولدت بين يديه ، تنسى في قربه كل شيء إلا دفء أحضانه ، تهيم عشقًا في لحظاتها معه طوال الأسبوع حتى يطل عليها في يوم عيدها ، يوم السبت فلا تدري زوجته ولا يدري أحد بزواجهما ، سوى حميدة التي دست أنفها فما كان منها إلا أن تريها ورقة الزواج ، فشر الفضيحة ما كان ينقصها ، تلك السيدة التي حاولت أن تغويه ولكنه اختار تفيدة ،

المطلقات أكثر حظًا من العوانس ، طالما رددتها تفيدة حتى قابلت ماضي فاندثرت مقولتها بين الذكريات المطوية ...

...

جهزت الطعام وانتظرت حتى جلس على كرسيه ثم جلست ، دست طبقه بالطعام ، لا يهم إن لم يأكله كله ولكن الأهم أن يدرك أنها تحبه أكثر من نفسها ، لو فكر للحظة وقارن بين طبقها وطبقه ، اليوم هي في أقصى حالاتها حرمانًا منه ، فهو لم يزرها الأسبوع الفائت ، تعود إلى المطبخ ، تغسل يديها ، تفك أزرار فستانها ، تكشف عن مطلع نهديها ، تكشف عن كتفيها ، ترطب شفتيها بأحمر الشفاه مرة أخرى ، ثم تعود إليه ، تجلس على الكرسي ، تستند بجسدها على المنضدة ، تستعرض بقايا أنوثتها ، تتأمل فيه وهو يأكل ، ويتحاشى النظر إلى عينيها ، تداعبه فيمتنع ، تحدثه فيتحجج بالتعب ، ينتهي من طعامه ويذهب إلى حجرته في نية خالصة أن يرتدي ملابسه التي أتى بها ويترك لها الورقة ثم يمضي ، دخلت عليه الحجرة حاملة عصير الليمون الذي يحب ، فارتوى ، أغلقت باب الحجرة وهو يقرأ تلك الورقة ، هو يعلم أنها لا تقرأ ، تسأله عن الورقة فلا يرد ، تعاود سؤاله فيمتنع عن الرد ، شاخص

البصر ومجمد الجسد ،كأنه يبحث عن شيء تائه في سطورها ،تركته مشغولًا بفك رموز ورقته ،تعرت ولفت خصرها البض بمنديل مذهب ،تعلم أنه يحب أن ترقص له عارية ،تقترب منه وتجذب منه الورقة وتقتل فيه كل ماضيها وتلتهمه بعشقها وصبابتها التي غالبتها طوال أسبوعين مضيا ،لم يقاوم واستسلم ،بل استسلم حتى الانتشاء ،أمسك بجسدها كأنه المحروم منها ،كأنه لم يمسها من قبل وطالما أرادها ،قتل فيها أساه وقتلت فيه الأسى ، خلى العشق بينهما وبين الحزن لليلة أخرى ،أرهقهما الحب فذابا في نوم المحبين ... استيقظ في الصباح ،ارتدى ملابسه، قبلها، ثم مضى.

...

استيقظت بعده ،تبحث عنه كعادتها في كل أسبوع منذ خمسة أعوام ،عله يمنحها يوم آخر من السعادة ،عله يستجيب لجسدها العاري المشتاق ،ودومًا لا تعثر عليه ، وتعود إلى فراشها بخيبة الأمل ،طال الرجا وما نالت وما امتنعت.

تعثر على الورقة بين ثنايا الأغطية ،تتركها على المنضدة ، حائرة بين الانتظار أسبوع آخر فتسأل ماضي عما تحتويه

أو تسأل حميدة عنها فهي تقرأ لها دومًا ما تحتويه أوراقها، تمتنع فقط خشية غضب زوجها فآثرت الانتظار.

...

يفتش في جيبه عن الورقة فلا يجدها، تختلجه الحيرة، أيمضي بذنبه أم يعود لها ويقطع الورقة وكأن شيئًا لم يكن!

كان الهروب سبيله الأيسر، فغاب عنها أسبوع واثنين وثلاثة وأربعة، تذبل وتذبل روحها، تتذكر الورقة، تنادي على حميدة كي تقرأ عليها ما فيها، تأتي لها بعد طول انتظار كعادتها، تنظر للورقة قليلًا ثم تقول:

- إنها ورقة طلاقك.

- طلاق السيد ماضي محمود السعيد من السيدة تفيدة أحمد الخليل.

- ورقة طلاقي؟!

- الرجل الناقص.

تحتضنها وتعزيها ببعض الكلمات المعتادة، وكأنها ترحب بها كعضوة جديدة في قطاع المطلقات، والأخرى لا تدري ماذا يمكنها أن تفعل مع الماضي الذي قد عاد بصبغة جديدة لم يتغير فيها سوى كلمة عانس!

تبكي على ماضي الذي مضى والذي لا تعلم سببًا غير أنها منحته كل ما تستطيع راضية غير آبية وكأن الماضي لا يموت .

❁❁

عقار السعادة

يجلس على كرسي قد خاطته المسامير كبالة قبيحة ، منكبًا على أوراقه ، وبجانبه شمعة عجوز تتراقص نارها فتدمع عيناه العمشاوتان ، وظلال الحجرة من حوله تحوم كأشباح متعبة ، الملح ملامحها والصفرة جسدها والرمادي همسها والظلام ضحكها ، هناك شقوق تكاد أن تخرج منها الأرواح العالقة وعلى الأرض كومات من الرمل ونشارة الخشب وفأر كبير يأكل في حذائه.

لا شيء آخر في الحجرة سوى مرتبة بالية منتصفها ساقط في الظلام كثقب أسود يمتص التعب وأطرافها قطع من الإسفنج تصرخ أثناء محاولتها الهروب من الأحشاء إلى هنا ، وهنا لا يشجع على الهروب ، فلا هي تصمت ولا هي تهرب، عالقة كالزمن الذي يخشى النهاية فلا ينتهي!

هل أثنى القدر عليه حقًا وهو الآن ينتحب كالأطفال؟!

جسده الذي ينتفض من الحمى والهلع الذي يشعر به ويده التي ترتعش بطيش.

لم يستطع أن يكمل كتابة كلمة واحدة منذ أن جلس على الكرسي ، وهو على الكرسي منذ ليلة أمس وقد مر يوم إلا ساعتين ، قد أبن فيها اثنتا عشرة شمعة ومئات الأوراق التالفة بكلمة واحدة لم يستطع أن يكملها واضحة.

عزيز...

عزيـــ.....

عـ...

- لا أستطيع أن أكتبها ، حاولت ولكن كيف يحق لي ، أنا الذي هوى في الجرم وأشبع نفسه بالضحك؟ ! المؤلم أكثر أنه لم يكن نسيانًا، تذكرتك كل يوم ولكني كنت سعيدًا جدًا بغيابك ، لا أستطيع التوقف عن البكاء منذ أن زال مفعول الحقنة الشهرية ، لأول مرة أبكيكِ منذ رحيلك ، بكيتك كأنك رحلتِ بالأمس ، أتذكر جيدًا كيف كان الرحيل ، ولكن فاجعتي أني لا أعلم لكِ قبرًا، لم أكن مهتمًا من قبل ، ولكن اليوم أنا حزين ، كأنني وكيل الحزانى وروحهم ، كأنني الحزن.

- ورقة صغيرة ستوقع عليها وتكون زوجتك سعيدة.

- نعم إذا كان ذلك سيسعدها سوف أوقع طبعًا بلا شك.

- إذا وقعت لن يكون هناك قبرًا لزوجتك.

- لكنها ستكون سعيدة؟

- نعم أكيد.

- يا لحظها السعيد.

- وقِّع هنا.

- أين؟

- تحت "الوصي على المتبرع".

- يا لحظك يا عزيزتي ، سعيد أنك رحلتِ لتحصلي على كل تلك السعادة وحدك.

- شكرًا لك.

- شكرًا لكم أنتم ، زوجتي ستكون سعيدة إلى الأبد بلا حاجة للحقن كل شهر، إنها الجنة.

...

كلما نظرت إلى صورتك كنت أحسدك وتمنيت لو كنت مكانك ، كنت كل يوم أحكي لكِ نكات جديدة وكنتِ تضحكين حتى تجلجل ضحكاتك صمت الحي ، لكني ذات يوم لم أملك المال لشراء حقنة جديدة ، بعت صورتك ، أنت سعيدة للأبد فلن تحزني ولن تغضبي بل ستزيد سعادتك لأنني سأكون سعيدًا لشهر آخر ، لا لوم عليَّ ، فأنتِ كنتِ السبب.

- حبيبي انظر ماذا أحضرت!

- ما هذا؟!

- إنه عقار السعادة، جرعة واحدة تجعلك سعيدًا لمدة شهر، ما رأيك؟!

- رأيي؟!

- سأفعل ما أريد وأنت أيضًا مهما فعلنا لن نشعر بالحزن أو الغضب بل سنسعد بحزننا وغضبنا.

- لا أدري.

- لكن حياتنا أصبحت تعيسة.

- لن آخذ ذلك العقار.

وفي اليوم التالي تزدادين رومانسية وألق ، تضحكين كثيرًا، أغضب منك فتزيديني حبًا، تمرضين فلا تتوقفين عن الضحك ، نجوع فلا تشكين بحزن بل تضحكين على مآسينا ، كان لا بد أن أشاركك السعادة ، فربما هي ما تبقى لنا لنواجه الحياة ، لكنني لم أعلم أنها ستصل إلى تلك النقطة، إلى الجحيم!

فأنت لن تصدقين إلا بأم عينك ، خارج تلك الحجرة عالم مظلم ، تلك الحجرة التي كنت أستمتع كل يوم بالتأمل في جدرانها كأنها معجزة أقامها روح فنان قديس سئم من

الجنة فعاد إلى بيوت الفقراء يرسم بكل حرية لوحاته الصادقة ، لا يأبه لأي أحد ، ماذا يأكلون، ماذا يرتدون، ماذا يفعلون ! أحياء أم أموات ... هو يحب أن يزين للفقراء كل شيء فلا يشعرون بالوحدة ويطمئنون للحياة ، الآن ما أراه قاتم جدًا، أنا في قلب زنزانة ضيقة ، يأكل فأر طعامي وملابسي وأحيانًا يقرض من أصابع قدمي ، لكنه لا يجرؤ أن يجلس على كتفي ، ربما لو شعر بالسعادة لالتهمني بشراهة.

وعن الجحيم الذي لم ترينه حتى الآن، لو عدتِ يومًا من الجنة بحثًا عن المزيد من السعادة لن تجدي أي شيء سوى الجحيم، ولو كانت سعادتك أبدية ففي ذلك العالم سيتبدد كل شيء.

...

يخرج الحقنة من جيبه ويجهز العقار الوردي ، ينظر إلى الخطاب بعيون دامعة ، ثم يحقن نفسه بيد مرتعشة جعلته ينزف بعض الدم ، نزف حتى فقد الوعي على مكتبه لدقائق ، لم يوقظه سوى الفأر الذي قضم إصبع قدمه الكبير ، فضحك كثيرًا وهو يتأوه ثم حمل الفأر وأخذ يقبله ، ثم رماه بقوة ليصطدم بالحائط.

والآن لنكمل الخطاب الذي ستسعد به عزيزتي، ستزداد سعادتها بالتأكيد في الجنة فتصبح سيدة أهلها.

...

"ولما نزلت في الشارع بعد انتهاء مفعول العقار وقد كنت معدمًا وتم فصلي من العمل منذ شهور ، فلم أجد مفرًا من النزول إلى شارع الشحاتين ، هناك رأيت أسرة مترفة تقف أمام أحد المتسولين ، كان المتسول رث الثياب ولا أظن أنه يملك بيتًا، منكفئًا على الأرض يلهث كالكلاب بينما تطعنه السيدة بكعب حذائها العالي في ظهره وتأمره أن يرقص وينبح لطفلها الصغير.

كانت أسرة جميلة وسعيدة وكريمة ، الطفل كان يضحك من قلبه ولكن المتسول تخيلي كان ينبح ويبكي ولكنه كان يضحك بشراهة عندما يأمروه بالضحك ، كم كان مشهدًا سعيدًا.

في النهاية رمى له الطفل بنقود كثيرة تكفي أن يشتري بها طعامًا وعقار السعادة لثلاثة شهور ، كم أحسد ذلك الرجل على سعادته ! .. لا تتخيلين، عندما سألته أن يعطيني نقودًا لأشتري جرعة واحدة رفض وأخذ في الجري حتى اختفى من أمامي!

تمشيت قليلًا فوجدت رجلًا عجوزًا يحمل كاميرا ويقف في زقاق ضيق مع فتاة عارية، بجانبها كان هناك قطعة قماش صغيرة بالية والكثير من ورق الكرتون.

أمرها أن تتلوى كالثعبان حتى أكلت الكاميرا كل جسدها ، وهي كانت سعيدة جدًا وتضحك على عكس الرجل الآخر الذي كان يبكي ، بعد انتهاء التصوير رمى لها ببعض النقود وبصق عليها.

- لو كنت أغنى قليلًا لما احتجت لتصوير حشرة وضيعة مثلك أتأفف من لمسها.

وضحك كثيرًا ..

- لكن جسدك يحبه عملائي ويمتعهم ، يبدو أن لهم ذوقًا آخر، لكن ما يهم هو النقود، أنا سعيد أنك موجودة.

...

بالفعل منذ دقائق كنت أشعر بالحزن وحزنت كثيرًا حتى قاربت أن أفقد عقلي، لكنني الآن سعيد جدًا لهم.

كنت غبيًا حقًا أن أحزن بينما هم يشعرون بالسعادة ، أتدرين ما حدث بعد ذلك؟!

لن تصدقي ، لقد دخلت إلى ذلك الزقاق بعد أن رحل ذلك العجوز، سأصارحك .. لم أرَ جسد امرأة منذ رحيلك.

عندما رأتني اقتربت مني بدلال وحاولت أن تقبلني ، كانت سعيدة حقًا لكنني كنت في ذلك الوقت أشعر بالحزن ، لم أكن سعيدًا مثلها ، اختطفت النقود من يدها وأخذت في الجري ، لكنها لم تجرِ ورائي ، ولم تصرخ ، كانت تضحك ، كانت سعيدة حقًا، هذا جرم صغير لكن طعمه جميل ، لم أقم بمغامرة منذ أن حاولت ترويض كلب مسعور في الضاحية ، أتذكر عندما نهش رجلي ، كنت سعيدًا جدًا، كل حقنة أخذتها في بطني كانت تجعل قلبي يطرب من السعادة ، لو كتبت لك منذ قليل كنت سأطلب منك أن تسامحيني على ذلك ، لكنني الآن أشعر بالنشوة ، أنا سعيد جدًا، سعيد جدًا يا عزيزتي".

❁❁

علموني الصبر

يا بلائي وبلواي ، يا شقوق الروح السرمدية ، وُلِدت فيها ووُلِدَت فيَّ، يا منبت الشمس ومسكنها ، يا غيبي الوامض في المعبد ، يا راهبًا وسط السكارى ، يا فاجرًا وسط المصلين ، يا من أتيه منك وتجدني ، يا من أتوهك وتعود إليَّ ، يا نصف نصفي ، يا اكتمالي المُحتقَر ، ويا نقصي المُفتَخَر ، يا مرئيّ في المرآة ، يا خفيّ في ظلي ، يا غاضب حين المرض ، يا صابر حين الألم ، يا أيها الأمل حين الخجل ، يا أيها اليأس حين الذلل ، عجزي فيك قد عظم وعجزك فيَّ قد تأله في السما ، صار رب الغياب الحاضر فيك ، ورب النقص الساكن فيك ، ورب تناحر مع الزمن ، فدمي وخسر ، ولما أفاق من غيبوبته على شفا الموت ، ظن لوحدته أنه انتصر ، يا شركي الأصغر والأكبر ويا ذنبي الأعظم والأخطر ، يا شيطاني العظيم ، يا مرآتي ، يا من عُذبتَ فيك سنين ، يا حيواني الوحشي المدلل ، يا رابضًا في زنزانة الروح الوحيدة ، يا من تأكل ذلاتي فتتأله ، يا من تنفذ من حوائط جسدي بلا جسد ، وتكتب عنك الروح بدم

متخثر أمام البشر الضاحكين ، أنا من رب العالمين ، أنا على الأرض الأمين ، حين أتلفح البياض تحشرني أفواههم مع المتقين ، وحين يهفو لساني بالسباب يسلسلونني في قعر الجحيم ، لم يكن عليك أن تزودني بهالات السواد المبينة ، فلا شفيع لي من الهروب من السؤال عن حالي ، عن مرض أسقم جسدي البالي ، عن ابتعاد النوم كسقوط دائم مفاجئ ، عن سر السهاد وجحوظ عيني الحمراوتان ، عن سر رائحة فمي النتنة وحشرجة أنفاسي وزرقة جسدي المكلوم ، لا أدري متى انفكت عقدة زر بنطالي ، أسير حاملًا له بين البشر ، علمتني السخرية أن أتغذى عليها فهي تقصر العمر ، وأنا أتلقفها منذ أخبرتني تلك المقولة جارتي العجوز قبل أن أترك قريتي ، لم تعطني سوى تلك النصيحة عندما علمت باقتراب سفري ، ولكن العمر لا ينتهي يا أيتها العجوز ، أطرافي مشدودة بقيود حديدية عارٍ مقطوع اللسان ومفتوح البطن ، وأتمنى الموت كل لحظة فلا يأتي ، يتغذى الدود على بطني منذ سنين ولكني لا أموت.

لا يحتاج واحد مثلي لمئات الطعنات كي يموت ، بل يحتاج لأن تطبق عليه السماء والأرض فلا تذر منه للحياة مزقة

واحدة ، أجلس مقرفصًا مطرقًا ، تدللني الشمس بلوني الطيني الذي يزداد حدة كل يوم ، وتعبر الحرارة إلى روحي، فلا تنقص منها شيئًا ولا تزد عليها شيئًا.

تقول السماء أن من يجمع الجيف يعش في أطهر الجنان ، وأنا أغطس كل يوم حتى سُدَّت كل سعاداتي بفضلات البشر.

حين سقطت أختي في المصرف منذ عشرة أعوام وماتت ، علمت أن نهايتي ستكون مثلها ، انتظرتها كما لم ينتظر أحد نهايته ، لم انتظرها وحدي بل انتظرها معي أمي وأبي وإخوتي وجيراني ، لم يعلمني شيخي في الصغر إلا التعجل ، فما علمني صبرًا ولا رأيت منه صبرًا ، إصبع يدي المعوج يشهد بأني ما تعلمت صبرًا ، تشهد كلماتهم "خد بالك من المصرف لتغرق " أنهم انتظروا معي الموت ، يوم بيوم وعام بعام ، وأنا الآن في جسدي الملتهب لا أجد لهفة إلا لغرق في النهر البارد ، أحرر بنطالي من قبضتي وأتعرى ، أقفز في الظل الخالي من البشر ، وحيدًا في متعتي وحيدًا في نهايتي.

لكن ما يمنعني عن الموت ، هو أنه في المعبد يتأله أمام المصلين ويقول بجسد عارٍ لا تثريب عليكم اليوم ، أمنحكم

الغفران وأعلمكم الصبر ، ثم يستفيق من غفوته ، حين لكزه من بجانبه بقوة قائلا: "سلم يا شيخ سيد ، الصلاة خلصت خلاص "، فينتفض ويقول: "معلش مشفتتش ، ساعدني أقوم عشان أروح"، يقف على مهل بينما تصطك عظامه القديمة لرجل في الثمانين من عمره.

يمسك بعصاه المعدنية ويتحسس بها الأرض كي لا يتعثر بأحد أعمدة المسجد ، لا يرى من حياته إلا جارته العجوز وهو يقول لها: "عمري طول من كتر السخرية ، واستنيت كتير، ومتعلمتش غير الصبر".

❁❁

فخري الدنيوي

محاولة جديدة لا بأس بها ، تحاول الشمس اليوم أن تجبرني على النظر في الأرض والاصطدام بهؤلاء البشر والاعتذار ، سيارة ملاكي ، سيارة أجرة ، سيارة أجرة أخرى ، حافلة مدرسة كبيرة ، سيدة جميلة منتفخة الصدر ، روث حمار مخضب بالصفار ، دراجة بخارية كادت أن تصدمني بعد إزعاجها لمدة ثانيتين لأذني بمكبر صوت كالخاص بسيارات الإسعاف ، اصطدمت بفتاة ترتدي الزي المدرسي ، يجب أن أغضب ولكن ماذا سأفعل فهؤلاء البشر لا يردعهم الغضب بل يدخلهم في مزاد الانتصار.

كل هذا بسبب تلك الشمس الحمقاء، لو أن هناك سحابة عابرة تحجبها عني ، ماذا يريد هذا المتسول؟ ! أيريد مني أنا بعض من المال؟ ! لو كان معي المال لما سرت على أقدامي كل تلك المسافة مصطدمًا بهؤلاء البشر وملقيًا بنقودي طمعًا في عيون ذلك المتسول ، لن أمشي على الطوار لأني أصاب بالضجر من عادتي العبثية بعد بلاطات الطوار حتى تصدمني أحد الأشجار الرابضة في

وسط الرصيف ، تستحوذ على حقي في المرور وينظر إلي الناس ساخرين ضاحكين ، هؤلاء البشر الحمقى دائمًا يتربصون بي حتى أقع في شرك الهزيمة ليفوزوا بانتصار الضحك ، سأسير بين السيارات التي تأتي من خلفي محاولة أن تصدمني وتبعث بي إلى السماء ، وبين السيارات الفارهة الرابضة على طرف الطريق ، يصدمني هؤلاء البشر في طريقي.

ما هذا؟ ! فول أخضر ، لم أعلم أن موسم حصاده قد حان ، سألتقط أحد الثمار وأتذوقه فربما أفكر في شرائه عندما تتسنى لي الفرصة بالإضافة إلى أنني أشتهيه فلم أتذوقه منذ عامين ، قد ينظر إلي البائع مستنكرًا وقد ينطلق لسانه الطويل بالشتائم في ظهري الأحدب ، وقد يصيبه الجنون ويمسك بي ويحاول الشجار عندها سأخرج من جيبي تلك الخمسة قروش وأضعها في يده فيصمت كأي بشري تغمض عيونه النقود.

...

هذا المعرض يثير اهتمامي كل يوم ، هناك سيارات تكفيني ولكنه عمل راكد تلك الأيام ، لو عملت في سمسرة

السيارات يمكنني أن أعيش ملكًا، ولكن المثل يقول "إدي العيش لخبازه" فيكفيني العمل في بيع العقارات.

هذا الزجاج اللامع يغضبني ، فهو يفضح صورتي التي لا أريد رؤيتها ، لقد دمرت كل المرايا في حجرتي الصغيرة منذ أربعين عامًا، لم يكن ينقصني سوى تلك الألواح الزجاجية العاكسة ، ها أنا كائن ما يشبه البشر في الستين من عمره ، قمت بتمشيط شعري كعادتي منذ ستة عقود من الزمن على الجانب مدهونًا بالفازلين.

لقد قام الحلاق بالأمس بتهذيب شاربي ، فالشارب هيبة الرجال ، وفي حالتي هيبتي الوحيدة ، تلك النظارة المقعرة يذكرها الأطفال في الشارع وهم يتهامسون ويتضاحكون على هيئتي بقعر الكوب.

اليوم أرتدي تلك الملابس الجديدة ، قميصي الأبيض المخطط بخيوط رفيعة رأسية وقد قمت بكيه على الحساب عند المكوجي ، وزررته كاملًا والكم يداري جروح يدي الكثيرة ، هذا البنطلون الجينز اشتريته من سوق الملابس المستعملة بخمسين جنيهًا، هؤلاء البشر يلتهمون النقود لا يعيشون بها ، وحذائي الأسود اللامع حذاء جلدي فتحته مزودة بأستك لأني لا أرتدي الجوارب.

نسيت أكثر أصدقائي بروزًا ، سألتفت قليلًا ، ها هو ظهري الأحدب ، يدعوني الأطفال في الشارع بالوحش ، لا يهم فهؤلاء أطفال بشريين لهؤلاء البشر الحمقى ، فكيف برأيكم أتت كل تلك الحماقة؟!

...

سأتجه الآن إلى المقهى وأتناول الإفطار ، هذا الحانوت الخاص بصناعة الحلويات يقلق مسيرتي اليومية ، يعتبر حلمًا مستحيلًا بالنسبة إلي ، حتى لو أنني مرضت فلن يزرني أحد بطبق محمل بتلك الخيرات المنمقة والمطرزة بالفاكهة الطازجة والشوكولاتة المجمدة ، عبثًا يجري لعابي كل يوم على رائحة الحلوى التي تفوح من داخل هذا الحانوت ، لا أستطيع تجنبها ولا هي تتجنبني ، أظن الأمر بات قصة عشق أبدية ، ولكنها تشبه قصة شاب أحب جارته يتلصص عليها ولا يملك منها سوى النظرات.

ها قد وصلت إلى المقهى ، سأتجه إلى الكرسي المفضل إلي ، في الطرف الأبعد على الطوار تلك المنضدة ذات الكرسي الخشبي الواحد على ناصية الشارع وتقاطع الطريق الرئيسي مع الطريق الجانبي عند شريط القطار ، غريبة تلك الأجواء المفروض أننا في فصل الربيع فلماذا

تستعرض الشمس عضلاتها على جسدي ، هؤلاء الحمقى يرتضونها ملكة تزورهم كل يوم وتصيب أجسادهم تارة بالحمرة وتارة بالسواد ، أما أنا الذي أبغضها تصر على عقابي طالما مشيت في الشارع، لا تعلم أن محاولاتها مجرد هباء لا يجدي مع جسدي ، فالألم صار أمرًا معتادًا لا أتلذذ به ولكني لا أهابه ، لن أواجهها كثيرًا فأنا لا آمن غدرها ولا آمن غدر جسدي لعزيمتي الصارخة ، الحقيقة أن جسدي يتصبب عرقا وقد التصق القميص في ظهري وأشعر بمرور نسمات الهواء من حولي!

...

أين ذهب هذا الصبي؟! على غير عادته لم يستقبلني!

- سيد، سيد.
- نعم، أستاذ فخري.
- أين كنت؟
- كنت أصلي الظهر.
- أتصلي؟
- نعم.
- هههههه، هيا لتحضر لي الإفطار والجريدة.
- حاضر.

...

منذ ثلاثين عامًا وأنا أجلس في مكاني هذا ، أتناول إفطاري البسيط وأشرب الشاي وأتصفح الجريدة وأدون العناوين وأرقام التليفونات والأسعار.

أعمل سمسار عقارات ولا أجد شقة تحوي جسمي النحيف ، تلك الدنيا لم تتوان في قص ريش أجنحتي ودفعي للجلوس بلا حيلة ، وبين لحظات العمل المعدودة أستغرق في تذكر حياتي المرعبة التفاصيل وما أزيد في نفسي سوى حنق مسلح بالغضب تجاه تلك الدنيا وهؤلاء البشر والحيوانات أيضًا، كل الكائنات ذكر وأنثى إلا فخري، فخري هو الكائن وحيد الجنس في هذا المجتمع السادي.

بالأمس قابلت عنايات التي تشتري العقارات وتبيعها لتحقق ربحًا بفارق الأسعار ، هي سيدة سمينة وثقيلة الجسد، يمتلئ ساعدها بأساور من الذهب وتعج أصابعها بخواتم ذهبية ، ترتدي دائمًا عباءة سوداء وتلطخ عيونها بالكحل ، ترى في نفسها سيدة لا تخاف الدنيا ولا كل الرجال ، في أحد الشقق التي أقوم بالبحث لها عن مشتري، بعد رحيل المشتري نظرت إلي وحدقت في وجهي بقوة وشراهة، وقالت:

- أريد أن أتزوجك يا فخري.

- تعلمين أن فخري لا يتزوج.

- إذا لا تريد الزواج، فيمكنك أن تزورني الليلة في بيتي.

- ولا يزور السيدات.

- ماذا بك؟! ألا تحب النساء أم أنني قبيحة؟!

- لا، ليس هكذا تسير الأمور.

- يبدو أنك لا تملك تلك الأشياء التي يمتلكها الرجال فيجعلون امرأة وحيدة مثلي تتمنى لحظات متعة عابرة في دفء أجسادهم!

- ممم، شيء من هذا القبيل.

فخبطت بكفها على صدري وضحكت ضحكة ساخرة متمايلة، فهي تضمن أنها لن تثير مشاعري!

فتركتها ورحلت ، تلك السيدة الحمقاء لا تستطيع أن تفهم أنني لا أعرف ذلك الشعور ، لا أعرف كيف أهوى امرأة أو حتى رجل ، انتهى الأمر منذ أكثر من أربعين عامًا، في عامي السادس عشر.

آااااه من تلك الحياة ، مر كل ذلك الوقت علي وأنا أعيش بين هؤلاء البشر وهم يظنونني بشري مثلهم ولا يعلمون أنني لست برجل ولست بسيدة ، أنا مجرد كائن غريب

العهد على حماقة الواقع المستمرة بلا توقف في حلقات مغلقة لا تنتهي.

...

ها هو سيد قد أتى بعد مرور ساعة!

- لماذا تأخرت؟!

- ذهبت لإحضار الجريدة ولكنه رفض أن يعطيني الجريدة فأحضرت منه جريدة الوسيط هي جريدة مجانية ويقول أنها مليئة بالعقارات ، ويقول لك لن تأخذ جريدة أخرى إلا بعد أن تدفع الحساب السابق، لأنه زاد عن الحد ، ثم ذهبت إلى المطعم وأحضرت الطعام.

- هذا الرجل القبيح ، يعلم أنني أدفع أول كل شهر في أغلب الأوقات أو عندما أعثر على فرصة بيع أو شراء أحد العقارات ولكنه لا يصبر على رزقه ، فليشبع بحسابي السابق وسأجد غيره!

ها هو الطعام ، إن بطني تتضور جوعًا، من المؤكد أن سيد يقوم الآن بإعداد كوب الشاي الخاص بالإفطار ويدونه على الحساب ، سندوتشان من الفول مع بعض المخلل وكفى، هؤلاء البشر دائمًا متعجلون على النقود.

لا أحد يفسح المجال للآخر لكي يكسب بعض النقود كي يسدد ديونه ، أنا لا أحمل المال أبدًا في جيوب البنطال ، فلا أحد يأمن شر السرقة تلك الأيام.

- تفضل الشاي يا أستاذ فخري.

- ضع الشاي هنا واذهب لإحضار جرائد الأسبوع الماضي من الداخل.

- حاضر.

شهي ذلك الشاي ، إن سيد هذا يفوق سابقيه مهارة ولكنه مازال بشري أحمق من هؤلاء الحمقى وأنا فقط أستخدمه لخدمتي لا أكثر ، لنرى ما تلك الجريدة الذي أحضرها ، أرتشف الشاي وأمسك بالجريدة ، من الصفحة الأولى يظهر أنها لا تحتوي سوى الإعلانات ، بعد دقائق من التصفح يبدو أن عملي سينتهي قريبًا إلا لو ضاعفت عملي باستخدام تلك الجريدة ، فبالإضافة إلى أصحاب المحلات والبوابين الذين يساعدونني في العمل مقابل عمولة من النقود سيكون لدي تلك الجريدة ، سأتصل بصاحب الشقة وأعاينها وأبحث لها عن مشترٍ ، سيكون الأمر بتلك البساطة ويمكنني أن أركب سيارة في وقت قريب. .

- سيد .... أين ذلك الصبي؟!

- سيد.

- نعم، يا أستاذ فخري؟!

- لا تحضر الجرائد ولكن عليك أن تحضر لي تلك الجريدة كل أسبوع.

- حاضر يا أستاذ فخري، ولكن ستعطيني عمولتي.

- عمولة ! حتى أنت أيها الصبي تطمع في النقود .. كلكم بشر حمقي، اذهب.

كانت تلك أول مرة أنطقها مدوية "بشر حمقى " يبدو أن ضعف ذلك الصبي قد أثار قوتي المتهاوية ، أيتها الدنيا المشوهة حتى عندما أثور عليكِ يكون ذلك في النطق ببعض الكلمات في وجه صبي لم يبلغ حتى الآن السن الذي يخشى فيه من شيء ، سأرتاح اليوم من البحث في الجرائد ويكفي تعرفي على تلك الجريدة التي تمثل كنزي المنتظر ، سألف تلك الجريدة وأحملها تحت إبطي وأجول في المنطقة وأبحث عن زبائن أو فرص جديدة.

يطلبون مني دائمًا أن أشتري هاتفًا محمولًا ولكني لا أحتاج لذلك الاختراع المزعج كما أن الأطباء يقولون أنه يسبب الأورام وجسدي لا يتحمل ورمًا آخر غير ذلك السنم

الذي أملكه ، وحش ذو قعر كوب وسنم يسير في الطرقات ، حاذروا أيها الأطفال الحمقى!

...

متى ظهر هذا السنم؟ ! بل ما الذي أدى إلى ظهوره؟ وما الذي أدى إلى الذي آل إلى ظهوره؟!

في عامي السادس عشر خرجت ذات يوم لأقابل تلك الفتاة الحسناء في أحد الأزقة وأنهل منها بعض القبلات الساخنة وأستمتع بالضغط على جسدها اللدن، يحدث الأمر كله كسرقة من رحم الزمان ، ولكن غفير الحارة وفتوتها تتبعني، كان شخصًا متجهمًا وهمجيًا على الدوام ، تتبعني بكلبه المدلل الذي تكفي عضة منه لالتهام أحد أعضائك وإصابتك بالسعار ، لم تأتِ في موعدها المتفق عليه وأتى هو ورائي متسائلًا عن ماذا أفعل في هذا المكان؟ ! وما الذي يوجد في جيوبي؟!

في تلك الأيام كنت أحمل النقود ولا أخشى السرقة ، فأجبته معي نقود ، فلما طلبها مني رفضت فأطلق الكلب على جسدي ، حاولت مرارًا وتكرارًا دفعه عن جسدي ولكنه كان كلبًا شرهًا للعض وقد غرز أنيابه عدة مرات في ساعدي ولما خارت قواي ، اكتفي بأن التهم خصيتي ومزق

قضيبي في عضة واحدة وتركني وجرى هو وكلبه المسعور!

لولا أنها أتت متأخرة قليلًا لكنت في عداد الأموات ولو أنها قد أتت في موعدها لاغتصبها ذلك الرجل أمام عينيّ، هو رجل لأنه يجيد الاغتصاب أما أنا فقد صرت الفتى الذي فقد عنوان رجولته وعلم كل سكان الحارة بالأمر، لم يظهر الفتوة بعد ذلك اليوم ولكن بات الأمر مؤلمًا.

أتذكره كلما شعرت بألم كحد السكين بين فخذيّ وأتذكره كلما أخذت حقنة ضد مرض السعار، يبدو أن الأمر أصبح جليًا في الحارة، تأتي سيدات الحارة إلى أمي ويجلسون في ساعات من النواح كأنني جثة هامدة يقدمون فيها واجب العزاء.

تغيرت يومها نظرات أمي وأبي إليّ، أصبحت نظرات الشفقة الموجعة، نظرة فقدان الحيلة، نظرة أم لابنتها التي تم اغتصابها وفقدت قدرتها على الإنجاب لأنها تم اغتصابها قبل أن يكتمل رحمها ويصيبها الحيض، صرت عاريًا أمام عائلتي، أختي الصغيرة لا تعلم عن الأمر شيئًا ولكن من المؤكد أن أطفال الحارة سيقولون لها أن أخاها

قد تم التهام خصيتيه من قبل كلب مسعور ، الأمر أدعى للسخرية أكثر منه مهين.

كان عليّ أن أجمع ملابسي بعد أن تماثلت الشفاء وأن أهرب من تلك المدينة لمدينة أخرى في محافظة أخرى بعيدة لا أحد يعلم عني شيئًا ولا أعلم شيئًا عن أحد ، هنا في تلك المدينة بدأت بالعمل في أحد المطاعم ، أقوم بغسل الصحون لمدة نصف يوم يوميًا وعندما أنتهي من العمل أذهب إلى تلك الحجرة التي استأجرتها على سطح أحد المنازل المتهالكة بجانب السور المحيط بشريط القطارات ، يعيش معي في السطح بعض الدجاج والبط ومن المؤكد أنهم ليسوا من نصيبي ، فقط أنال منهم الصياح والجلبة طوال اليوم ورائحتهم التي أنستني مع الوقت روائح العطر ولم أعد أشعر برائحة جسدي.

قضيت ست ساعات كل يوم محدقًا في تلك الشمعة، فالكهرباء كانت أمرًا مستحيلًا في تلك الأيام ، حتى كست عيوني الغشاوة والضعف وانحنى جسدي من النوم على المنضدة ، فصرت الوحش صاحب السنم ، والرجل في عيون الناس لأنه يملك شارب ، وصاحب قعر الكوب لأني

لم أجد أنيسًا لي في حياتي طوال أربعين عامًا سوى تلك الشمعة.

...

ها قد انتهيت، سأعود إلى المقهى وأقضي ما تبقى من النهار على ذلك الكرسي ، في الحقيقة لا أعلم هل لمثلي أن يطمع في نعيم الجنة أو جحيم جهنم ، يبدو الأمر بالنسبة إليّ مجرد قصة خيالية ، فمن المؤكد أن الرجل عندما يتمنى شيئًا يتمناه لأنه يشتهيه ، فالرجل يتمنى الجنة لأنه سيجد فيها راحة مليئة بالخمر والحور العين والطعام ، وسيخشي الجحيم لأنه خير بين اثنين ، والسيدة تجد لنفسها سكنًا وعائلة ورجلًا تستند إليه، هكذا أتيحت لها الدنيا، وتذهب في الآخرة لتتمنى الجنة وزوجها وطعامها وشرابها وتخشى العذاب ، ولكن ما بالكم بكائن كان رجلًا ولم يتبق له من الرجولة سوى شاربه وصوته الغليظ ، لم يمس امرأة قط ولم يشعر بتلك النشوة التي تعلو حرارتها في اشتهاء النساء ، وشعر بأفظع الآلام التي قد ينالها إنسان في الدنيا ويعيش وحيدًا لأربعة عقود من الزمان ويدعوه البشر الحمقى من حوله بالوحش ذي السنم ذي قعر الكوب ، ليس لمثلي عذاب وليس لمثلي جنة أو نار ، أمثالي

ينتهون كما تنتهي الحيوانات ، فهي إذا نفقت تنتهي حياتها إلا لو ظلمت وما ظلمت إلا أن ظُلِمت وما غضبت إلا إذا أُهِنت وما عشت إلا لأني لم أدر كيف أموت!!!

...

يصل أخيرًا إلى المقهى ويجلس على كرسيه المفضل حاملًا الجريدة التي ستوفر له غدًا مشرقًا تحت إبطه وينظر إلى السيارات المارة ، لتتوقف نظراته عند ذلك المشهد ، شخص منسي لا يملك أي نقود تكفي جنازته وللتو قد فارق الحياة!

❁❁

في القرية الصامت أهلها

كان كل شيء في قريتنا هادئًا حتى ذلك اليوم ، ربما كمياه آسنة غطاها التراب فانمحت عن الرؤية وساوت نفسها بالأرض ، أرض بور لا تهب الزرع ولا تذر من رحمها ظل الشجر ، كان كفيلًا ذلك الحدث أن يغير كل شيء لكنه لم يثر أي شيء ، فلقد سرق سيد من القرية وكسر العهد الذي لم يقسم به من قبل ولكن قد آمن به أهلها استنادًا لما عهدوه.

سيد يسرق التوكتوك من أي قرية مجاورة ، يستره عن العيون ويعريه ، ثم كفنان يعيده لحالته الأصلية ، كما أتى من الهند معافى من السماعات الصينية والملصقات الفوضوية ، ثم يعرضه في خلال أسبوع في معرضه في القرية ، سيد لم يشعر بالذنب يومًا لأنه يكفر عن ذنوبه عند فضيلة الشيخ حامد إمام مسجد القرية الكبير الذي بناه كبير القرية بملايين الجنيهات ، قال الشيخ حامد لسيد ذات مرة أنا أمنع عنك الجحيم في الدنيا والآخرة وأنت لا تقطع المال عن مسجدي ، كان اتفاقًا عادلًا فكلمة الشيخ كانت

كالسيف وإذا قال لأهل القرية أن يبكوا صارخين في الطرقات لفعلوا ولو أمرهم بقتل أنفسهم ابتغاء مرضاة الله لفعلوا طائعين ، ذلك أن الشيخ حامد لم يمنعه جشعه عن اقتسام الأموال التي يجتبيها من سيد وكبير القرية وأغنيائها بالنصف مع فقراء القرية ، فنظر له أهلها نظرة المُعذَّبين لأولياء الله، كانت كراماته تعطيهم الكثير من الأمل ، والحقيقة أنه ما نطق إلا بما يقدر على فعله وأسند كراماته كلها لسحر المال وأثره ، وما خاب مفعول السحر يومًا ، فكان لزامًا ابتغاء مرضاته ، حتى عمدة القرية وكبيرها لا يقدران على إثارة غضبه، وأما هو فما خيب ظنهم به أبدًا.

سيد كان يمكن أن يكون في السجن منذ سنين لكنه سخر نفسه لخدمة كبير القرية منذ سنين في كل انتخابات مجلس نواب ، فسيد كما يقولون عينه في بيوت القرية ويده التي يبطش بها ، وإن بطش كبير القرية لكبير ، هو الذي وضع يده على كل أراضي القرية وسخر أهلها ليعملوا عنده باليوم ، ما قدر أحدهم على رفع صوته يومًا إلا وأصابته ضربة قاسمة واستقبلته الديون والسجن ، فما من أحد إلا ويدين بالمال لكبير القرية ، وما من أحد يحبه وما من أحد لا يطلب كرمه.

لم يكن العمدة راضيًا عن سيد في بداية الأمر ولكن عندما قبَّل سيد يد العمدة كما يقبِّل أهل القرية يد الكبير خمدت نار ضيقه وتبدلت استحسانًا، العمدة هو السر الحقيقي لانتظام نغمة العزف الظالم في تلك القرية، هو لسان القانون وعين القانون وعين شيخها ولصها وكبيرها، ولسانهم إذا لزم الأمر.

كان كل شيء هادئًا في مساء ذلك اليوم، فلقد اجتمع العمدة والشيخ وسيد في بيت كبير القرية يتسامرون، فلقد آثرهم بمجلسه رغم اختلافهم عنه، وهذا ما قد أخمد الكثير من نيران الغضب في نفوس القرية التي تئِن وتزمجر في ظلام الليل، فكيف للشيخ صاحب الكرامات أن يصادق لصًا وكيف للكبير الذي يراه الكثير ظالمًا وغريبًا عن القرية أن يجالسهم فيفضي بسره لهم ويفضون بأسرارهم له دون أن يراهم دونه ودون أن يطرقون رؤوسهم نحو الأرض إجلالًا!

...

فجأة تصدر أصوات عظيمة من خلف باب حديقة البيت، بينما يجري الحارس مسرعًا نحو الكبير ويهمس في أذنه مخبرًا إياه أن جماعة من أهل القرية يتصدرهم حسن

الخولي ابن الحاج سعيد الخولي بقال القرية يطلبون مقابلته، فأذن له بإدخالهم ...

- العدل يا كبيرنا العدل.

- ماذا حدث؟

- سرقني، سيد الحرامي سرقني، سرق التوكتوك مني.

اعترض سيد غاضبا:

- اصمت حتى لا تنل مني ما لا تتحمل.

- ربنا قادر على كل ظالم، العدل يا كبيرنا العدل.

يقول العمدة:

- أنت في حضرة كبير القرية، فتكلم بصوت منخفض ولا تتجاوز الحدود:

- سرق أكل عيشي، فكيف أسكت؟!

يتنحنح كبير القرية لكي يصمت الجميع:

- هل سرقت توكتوك حسن يا سيد؟

- والله ما حدث، وأحلف على المصحف!

- حلف بالله وعلى المصحف يا حسن.

- العدل يا كبيرنا العدل.

- ليس هناك دليل على أنه سرقك ! وحلف على المصحف ، أم عندك دليل؟!

فبهت وجه حسن واحمرت عيناه من الغيظ وكاد الدمع أن يغلبه من الحسرة، فقال العمدة: ولكن!

سأل حسن: ولكن ماذا؟!

- بع له يا سيد توكتوك من معرضك بالتقسيط المريح.

فأثنى الكبير على الرأي واستجاب سيد:

- أمرك يا حضرة العمدة.

- العدل يا كبيرنا، فكيف أشتري ما سُرِق مني؟!

فرد الشيخ حامد:

- تأدب مع الكبير يا حسن فوالله ما حكم إلا بالعدل.

لم يرد حسن وذهب هو وجماعته وهو يردد:

- حسبي الله ونعم الوكيل، العدل يا رب العدل.

...

ثم مال الشيخ حامد على أذن سيد قائلًا بصوت واضح:

"كفارة التوكتوك إذا بيع لصاحبه هي نصف ثمنه والله أعلى وأعلم".

ثم ضحك حتى بانت سنته الذهبية فضحكوا جميعًا حتى دمعت عيونهم.

❁❁

قاتل القدر

متدليًا على شاطئ البحر المترامي الأطراف ، راميًا برأسه نحو جسدها ، يبقر بطنها بلا رحمة وهي تتلوى في الرمق الأخير ، يغرز السكين في جسدها كمن يعزق الأرض وينتزعه بكل قوة ، يهتك به كل روح، وينهش في لحمها الذي ودع الحياة في لحظة مباغتة لم يدر بها إلا وروحه على وشك الرحيل ، امتص الحياة من جسدها بلا رحمة وبلا هوادة ، كأنه يقتل في جسدها كل أحزانه ، كل ما أسدل عليه ستار النسيان ويعاوده ، لم يسعفه طول الستار في منع تلك الأصوات التي تطارده والتي لا تكف عن الولوج لأحلامه ، يستيقظ كل يوم فزعًا لا يدري هل فعلًا أفاق أم أنه انغرس في حلم آخر هاربًا من هذا الواقع المزدحم بصخب الألم ، تجلو حقيقة واحدة في رأسه "أنه الأجدر بالحياة والأحق بالانتصار " ينظر إلى البحر وأمواجه التي تصلصل غضبًا ويصطلي الجو حولها بالكآبة تردعك عن التفكير في محاولة منافسة الطبيعة بل ويصبح معها الانتصار على الطبيعة محض

خيال ، لا يملك أن ينتصر على القدر ، ينظر كل يوم إلى المرآة ويتمنى لو فقط يستبدل انعكاس جسده بصورة القدر فيمسك بتلابيبه وينتزع أسنانه ويفقده رجولته التي تتجاوز حد الزهو على رؤوس البشر ، لكن لا فائدة فهذا الخيال لا يتحقق ولا يصدر عنه سوى ضياع الوقت في التفكير.

قرر أخيرًا أن يستبدل أمانيه البائسة بصورة أشد بأسًا وعنفًا ودموية ، يخرج كل يوم مع انبثاق الفجر مرتميًا في زورقه الخشبي القديم ، وصنارته الجديدة والتي تتحمل أن يستخدمها في اصطياد سمكة قرش تبلغ المترين أو أحد أسماك التونة المكتنزة باللحم ، ينظر نحو البحر ولا يخشى أمواجه الغاضبة ويعلن التحدي كل يوم فيظن بذلك أنه يكسر أنفة البحر الهائج وبالتبعية يكسر الطبيعة والقدر الذي يتمنى لو يتجسد أمامه فيقتله ، ولكن التحدي لا يتوقف عند تلك الخطوة ولا أن يتغلب على مهابة الموت بعاصفة شديدة في وسط البحر أو موجة كاسحة تقلب زورقه الخشبي القديم رأسًا على عقب ، بل إنه ينتظر أن يصطاد سمكة تفوقه حجمًا ويجد المتعة في الشد والجذب مع سمكة قوية لمدة خمس ساعات ولا يمل ، ينتظرها ويعلم أنها حتمًا ستخنع ، بعد أن يتملكها الإنهاك سيجذبها بزورقه الخشبي

حتى الشاطئ ، سيزيد من تعذيبها وطرف الخطاف الحديدي مغروز في فمها ... ((الله أكبر الله أكبر)) يغرز الجزار الخطاف في شدق أبيه ليخرج من خده الأيسر، مكبرًا ومهللًا وحوله يقف المئات من أهل القرية فرحين ، يباركون شد أبيه كالذبيحة أمامهم على أرض الشارع ، يتجهون صوب الساحة الأكبر في القرية ، الخوف الذي تملكه في طفولته في تلك اللحظة لم يمكنه من الدفاع عن أبيه الذي ينازع بمباركة أهل القرية التي أعلنت للتو غضبها على أبيه ، وكذلك لم يمنحه القدرة على الهرب ، وجد نفسه ينساق وراء جسد أبيه الذي يساق كالبهيمة على مرأى من كل هؤلاء البشر ، تابعه بعين لم تقدر على الدمع في تلك اللحظة ، فالمفاجأة قد داهمت كل مقدرة بشرية على التعبير ، الذهول كان هو الحل الوحيد ولم يملك غيره ، حتى أبيه الذي تنتزع حياته من جسده لم يقوَ على الدفاع عن نفسه ، استسلم لإرادة هؤلاء البشر وأشبع رغبتهم في سفك دمه ، لم يكن الخطاف الذي اخترق شدقه الوحيد الذي انغرز في جسده ولكن آخر في ظهره وآخر بين قدميه ، تفجرت خصيتاه وسال الدم من بنطاله المقطع ، خط من الدماء قد صاحبه من بداية الدار حتى الساحة ، والآن وهو

معلق في ساحة القرية كالمسيح على أحد عواميد الإنارة ، ينظر إليه أهل القرية في فرح وما زالوا يهللون ويكبرون ، تتساقط دماؤه بغزارة لتصنع بركة من الدماء تحت جسده الذي بدأ في الانكماش ، تضفي عليه قدسية لم يرها أحد سوى ابنه الذي جلس تحت جثة أبيه المعلقة أمام مئات المشجعين.

فجأة بدأ في البكاء ، فأنين أبيه الذي تصعد روحه الآن في السماء هز ذهوله الذي كبل دموعه حتى غروب الشمس ، ولكن لم يجلجل صوته صاخبًا معلنًا تألمه أو اعتراضه ، لم يستطع أن يخلص أباه من قيده ، فما هو إلا طفل صغير في الرابعة من عمره ، لا يملك إلا البكاء ، البكاء الذي طالما نهره أبوه عنه والذي لم يجد له أمًا تروح عما اعتلا روحه من كمد ، الآن ما تبقى له سوى بركة دم أبيه المقدسة وجثته التي تشبه المسيح ، لم يعرف يومًا جريمة أبيه التي سببت غضبة كل هؤلاء البشر ، لم يره بعد اليوم في أحلامه، لم يعد يقوَ على النوم إلا عندما ينهكه التعب.

هرب ... هرب من هؤلاء البشر ... لأنه عندما أفاق لم يجد جثة أبيه المعلقة ولا بركة دمه المقدسة ، شعر كأنه أُلقي وسط جنس آخر غير جنسه ، خشت طفولته على ما تبقى

فيه من طهر ، فوجد نفسه على الطريق هاربًا، مرت أيام حتى وصل إلى البحر وسنوات حتى اشتد ساعده ، وجد ضالته ، رآها في البحر ، في السمك القاصم ، في الموت ، يرتمي في أحضانهم ولا يخشاهم ، تصير متعته أقصاها لأنه قد تغلب على بعض تلك القوى التي يرسلها القدر ، القدر الذي يخشى نزاله، يخشى حتى من التجسد أمامه.

وصل إلى الشاطئ ، يسحب السمكة الضخمة ، لم ينزع عنها الخطاف ، أخرج سكينه وغرزه في بطنها ، ستصمت بعد قليل في بركة دم مقدسة ، ستشربها الرمال حتمًا، وستنذر الطبيعة القدر أن هناك من ينتظره ، يكسر كل خوف وكل قوة تنازعه على ملك تلك الأرض، على ملك تلك الحياة.

❁❁

من ماء عكر

أمام أحد محلات البقالة يقف على بعد مترين وقفة لا توحي بنية الشراء ، يتجنب نظرة البائع بكل حذر ، يخطو خطوتين للأمام ، ينظر في الأرض ولا يعبأ بالناس من حوله ، ربما حقًا لا يعبأ بهم ، يرتدي جلبابه الرث ومعطفه الثقيل الفضفاض بالنسبة لضآلة جسده النحيف ، بما يؤكد أن هذا الرجل لا يحيا حياة رغدة.

يدس يديه في جيوبه يبحث عن بعض النقود ، يتحسس النقود المعدنية ، يحاول أن يعدها داخل جيوبه فطالما استحى من عد نقوده القليلة أمام الناس ، ربما حقًا يعبأ بهم ، لكنه لم يتمكن من عدهم بتلك الطريق فانزوى أمام محل مغلق ووجه نفسه قبالة هذا المحل وأخذ يعد نقوده القليلة ، جنيه ونصف مقسمة إلى ربعين ونصفين.

الذي استوقفه أمام محل البقالة ، بل الذي أخرجه من منزله على غير عادته في ذلك الوقت أنه قد تاقت نفسه إلى شرب المياه الغازية ، كما أن الحموضة قد زادت إلى حد قد أرق مأكله ، وقد نصحه أحد الأصدقاء أن يشرب الصودا

كي يطفئ نار المعدة ، يدرك جيدًا أنه إن نفدت نقوده اليوم فإنه لن يجد ما يسد جوعه غدًا سوى رغيف خبز ، لن يأكل الطعمية كعادته ، ربما سيفكر في شيء ما ، أما الآن فالحموضة التي تحرق جوفه لا تجعله يفكر إلا في التخلص منها وإشباع اشتياقه للمياه الغازية ، الحقيقة أنه لا يحب الصودا ولكن يحب المياه السوداء ولكنها لن ترأف ببطنه الفارغة ، يخرج نقوده ، يتجه لمحل البقالة ، وينتظر دوره، ينظر للثلاجة سارحًا، ماذا إن أرهقته بطنه طيلة الليل ، ما الذي سيخفف عنه ألم الجوع ، مع الجوع تسود حرقة الحامض وتؤرق النوم ويزداد السعال ، كما أن جسده الهزيل لم يعد يتحمل الجوع ، إن الرجرجة التي تصيبه مع السعال كفيلة بتشبيهها بفتوة يصرعه عدة مرات بلا رأفة.

ينظر لألوان الزجاجات السوداء والخضراء والبرتقالية ، تتسمر عيناه أمام الزجاجة السوداء ، يتذكر طعمها في فمه ، يجري لعابه ، تتغير فكرة علاج الحموضة في تلك اللحظة ، وسادت الفكرة الوحيدة التي قاومها منذ الصباح ، الزجاجة السوداء ، طعم الكولا يريحه ، يذكره بطفولته ، ببداية شبابه قبل أن يتغير كل شيء ، يتذكر أباه الذي كان لا يشرب إلا المياه الغازية على الدوام ، لا يتذكر أنه قد رآه يومًا يشرب

مياه الشرب العادية ، كان يقول أنه لا يطيقها ، يشعر بمرارتها في حلقه ، فلما كان هو ابنه فكان من الطبيعي أن يجد المياه الغازية في كل وقت وفي كل مكان تواجد فيه والده ، حتى مات والده فبهتت الدنيا ، وتجرع مرارة مياه الصنبور ، مرات مغبرة مرات مصفرة مرات كريهة الرائحة ، تحملها لأنه لا مناص عن الشرب ، يتذكر قول أبيه الساخر "خُلقت من الكولا "، ويتحسر على حاله الذي تردى ، ينتشله من السرحان نغزة إصبع البقال بعد أن فقد الأمل في انتباهه إلى ندائه: "أيوه يا عم الحاج ، يا عم الحاج، يا عم الحاج".

لم تكن النغزة الأولى كافية بل كان عليه أن يؤلمه كي يستفيق ، كأنه قد غرق في حلم ثقيل ، أخذ ينظر إلى الثلاجة وهو يرد على البائع ، بعد الكثير من الدمدمة ، طلب منه قطعة من الجبنة المثلثات ، دفع لها ربع جنيه ونظر نظرة أخيرة على الثلاجة ثم انطفأ بريق عينيه ، بدمعة شقت طريقها على خده البالي.

تدافعت خطواته البطيئة تحت الشمس ، يثرثر مع نفسه بكلام مبهم ، ثم تعلو همهمته حتى فاض لسانه مدمدمًا

"خُلقت من الجبن ، خُلقت من الجبن ..." ثم رد قائلا: "لا لا خلقت من ماء عكر ، أنا الماء العكر .. أنا الماء العكر " ... قطعًا لا يهتم بكلام الناس ، قطعًا لا يهتم ، ولكنه تلفت حوله عندما سال الدمع على خديه ، فربما يهتم ولكنه يأبى الاعتراف، ربما حقًا يهتم بكلامهم.

❁❁

مخبز العزبة

القول الفصل في كل احتدام يواجه البشر هو صوت غرد بعيدًا على غير العادة ، فمر كنسمة الهواء تلك التي عبرت الأجساد المتعرقة فألانتهم ببرودتها وأثقلت ألسنتهم برحمتها.

...

هنا في ذلك الشارع الضيق منذ الساعة الخامسة صباحًا نسمع أزيز مجرى الخبز البادئ عند العجان والمنتهي عند تلك الزحمة من الناس ، فعندما قرر الحاج عبدالله المويلحي أن يبني مخبزًا، بعد أن رأى في منامه أنه قد عجن خبزًا فأكلته فراخ الحمام فصارت الواحدة منهن بحجم البقرة ، يرف جناحاها فوق شارعين متوازيين وما بينهما من بيوت ، لم يكن ساعتها يملك من المال ما يكفي إلا لشراء ذلك المكان في ذلك الشارع الضيق جدًا فلا تستطيع دخوله أي سيارة صغيرة ، وأسس مخبزًا هو الأول في العزبة ومن قبله كان يضطر أهل العزبة إلى الذهاب لقرية مجاورة يزاحمون أهلها كتفًا بكتف وذراعًا بذراع ، ويا

ويلهم إذا نشب عراك بين واحد من أهالي تلك القرية وبينهم ، وحيدون غرباء تقتاتهم الشتائم والحجارة ، وربما تنسلهم السيوف والعصيان ، فلا أحد ينسى ما حدث لسعد الترزي عندما اعترض على سيدة رمت بجسدها في الفسحة التي أمامه وقطعت دوره ورمت بخمسة جنيهات في حجر موزع العيش ، وخرجت بقفصة كاملة عليها عيش نافش أبيض اللون محمر الوجه بينما لم تفلح زعقات سعد الغليظة في تغيير ما يحدث ، ولكن بعد أن رحلت تلك السيدة ظهرت بعد قليل ومعها زوجها والذي كان ضخمًا بالنسبة لسعد وأضخم من كل من حضروا تلك الحكاية ، أشارت السيدة من بعيد على سعد قائلة: "هذا الرجل ، نعم ، هو من شتمني وخبطني على ظهري".

لم يسمع الرجل كل ما قالته وقبل أن تنتهي من كلامها كان يجر سعد من ملابسه كأنه شوال أرز نصفه مملوء ونصفه الآخر ملموم في قبضته ، وضربة واحدة بنصف قالب طوب شرخت رأسه وصفت عينه اليمنى ، لم يقدم له أحد الناس المساعدة فغريب مثله لم يكن له أن يضرب سيدة ويشتمها ، هكذا قال أحد الشهود على الحادثة وبدون وعي في خلال دقيقتين كان ذلك هو الرأي السائد والسديد في

نظر الجميع ، بينما يحمل سعد قميصه في يده يسد به نصف وجهه الذي يفور منه الدم محاولًا الوصول للطريق الزراعي ليجد من يحمله إلى المشفى قبل أن يفقد وعيه.

لم يستطع سعد أن يعرف الشرطة على الجاني ولم يره من قبل أهل تلك القرية ، سعد صار شبه أعمى يتحسس خطاه في الطرقات يرمون له بالقروش القليلة فيقتات بهم ما تيسر بينما تركته زوجته هي وابنها باحثة عن زيجة أخرى تنقذها من حظها التعس.

واليوم هو الذكرى السنوية لافتتاح مخبز الحاج عبدالله واحتفالًا به قرر أن يوزع العيش مجانًا في ذلك اليوم على كل أهل العزبة ، ولأن حصته من الدقيق صغيرة فقد تسابق أهل العزبة على الوصول للمخبز بداية من صلاة الفجر حتى الآن، والآن الساعة السابعة وقد احتشد في الشارع ما يزيد عن مائتين من الناس بينما لم يبدأ المخبز بعد في إخراج العيش ، فقد تأخر العجان وكانت المياه مقطوعة ولأسباب غريبة كانت هناك صراصير كثيرة متثاقلة من الإعياء تتمشى وسط الفرن والعجانة والميزان ، بينما يقف الحاج عبدالله مستندًا على عكازه شاخطًا في عماله آمرًا

لهم بقتل كل تلك الصراصير قبل البدء في العجن حتى لا تقع في العجين فتفسده.

يعود الحاج عبدالله إلى مدخل المخبز ويجلس على كرسيه ذي مسندي اليد الوثيرين ، بينما تتهافت عليه الأسئلة والتهاني والدعوات: "متى يخرج العيش يا حاج عبدالله؟ كل سنة وأنت طيب وبخير يا حاج عبدالله ، ربنا يعطيك من نعيمه يا حاج عبدالله ...".

وأمام الحاج عبدالله يقف الناس متعرقين ، متقاربين ، متزاحمين ، تحتد أصواتهم فجأة وتخفت إذا ما سمعوا صوتًا غريبًا من داخل المخبز أو صيحة أحد العمال ، ثم تعود أصواتهم لإنتاج الضجيج مرة أخرى.

بينما قد تعلو ضحكات السيدات أحيانًا وتخفت ، كانت ضحكات الرجال لا تتوقف أبدًا ، تجلس سيدة خمسينية على الأرض جلسة القرفصاء ناظرة إلى جسد فتاة ذات سبعة عشر عامًا من العمر ، متأملة في ملامح جسدها المخبأ في عباءة سوداء ، حجم خصرها ونهديها ، ولون بشرتها ، وقصة الشعر الظاهرة من تحت طرحتها ، ثم تنادي عليها لتعينها على الوقوف ، وتغازلها "كل ذلك الجمال؟ !"، فتبتسم الفتاة على استحياء فترى السيدة بياض أسنانها كان

هناك ضرس محشو وقد خضبه السواد ولكن لم يؤثر على ضحكتها وجمالها ، فسألتها السيدة عن اسمها ، بينما يقف مجموعة من الرجال في الناحية الأخرى من الشارع يقف أحدهم متزعمًا وسط الدائرة واضعًا يديه في جيبي جلبابه ورافعًا لها حتى ظهرت ساقيه تفرق بين جلبابه الرمادي وشبشبه الجلدي ، تضج كلماته بخشونتها في آذان من حوله رافعًا ذقنه إلى السماء ، تتمايل رأسه في استهزاء بشكل لا يليق بشاربه الكث ، قائلا: "المهندس أكد لي بنفسه ، أنتم لا تعرفون شيئًا عن الزراعة ، وغدًا ترون محصولي ومحصولكم".

وفي نهاية الشارع يلعب مجموعة من الصبية بكرة زرقاء صغيرة ، يسددون ضربات جزاء بلا خوف من غضب أحد الكبار، بينما يتراهنون على الأسبقية في طابور العيش.

والآن بعد توقف أزيز الفرن لنصف ساعة عاد مرة أخرى مع صيحات العمال مؤذنة بخروج العيش ، بينما اهتاجت الأجساد في الشارع وتزاحمت بشكل فوضوي أمام الحاج عبدالله ، كان من الصعب التمييز بين الرجال والنساء في تلك الزحمة بينما يعلو صوت أحد الرجال صائحًا في وجه سيدة أن تلتزم بمكانها ولا تزاحم نفسها بالرجال ، تعنفه

سيدة أخرى على قوله بينما تحاول إسكاتها جاراتها لتقصر الشر ، بينما يضرب الحاج عبدالله بعكازه على الأرض فيصمت الجميع قائلا: "ليست تلك بطريقة تعامل بها السيدات "، فعاد الرجل للاعتراض بصوته الغليظ تدعمه حشرجات الرجال المتذمرين الخائفين من غضب الحاج عبدالله الذي قد يمنع عنهم العيش ، يعلو الضجيج ويخفت بينما يجلس سعد الترزي مستندًا على الحائط المقابل لباب المخبز مرددا: "العيش ضرب في الأرض دمي ودمي ضرب في الأرض عيش".

❁❁

الشر

أن تصبح شريرًا ليس بالأمر السهل ، كلكم تتصورون أنه من السهل خلف ذلك الباب ادعاء ما لست عليه ، أن تخلع رداء الخير من روحك وتتمسك برداء الشر كأنه الذي نسج روحك حتى اكتملت ببراعة مهاراته في التكوين ، أؤكد لكم لأنني تقدمت لتلك الوظيفة عدة مرات ولم يقتنعوا بأي حيلة استخدمتها ، عشرون عامًا وأنا أتحضر لتلك اللحظة ، أرى شريط كل المرات السابقة التي نظر فيها المختصون في الاختبار ناحيتي قائلين: "أنت غير مؤهل ، أنت لست شريرًا بأي طريقة "، نظرتهم مليئة بالاحتقار ، كأنهم احتكروا الشر لأنفسهم ، ما الذي يمنعني وأنا في ذلك العالم أعب المآسي ويتقرح جسدي ويتقيح من كثرة الجلد يوم بيوم منذ طفولتي!

وهنالك السر ، أمعنت النظر يا أعزائي في طريقتي ، الحيل السابقة لها كانت تملأها الدوافع المنطقية ، مثل أريد أن أقتل فلان لأنه أهانني ، الغضب جميل فعلًا، أريد أن أقطع جسد علان حتى أرى قطع من اللحم تغلف قطعًا من

العظم ، لأنه كسر عظام يدي ذات يوم لأنني اعترضت على طريقة معاملته لأحد الأطفال ، الانتقام مبرر منطقي للقتل ، لكن ستفاجئون أنهم لم يعتبروني شريرًا رغم ذلك ، فذهبت في نفس ذلك اليوم إلى منزل ذلك الشخص وقطعت رأسه وأتيت بها إليهم ، لكنهم لم يقبلونني أيضًا، يا لفداحة أفعالي ، ذبحته ، حففت السكين برقبته ، كان سكينًا صدءًا وقاوم هو كثيرًا فاضطررت لغرز السكين في رقبته عدة مرات قبل أن أجد زاوية صحيحة ليكسر السكين فقرات عنقه ، رغم كل ذلك نظر إليَّ المختصون باحتقار ، كل ذلك لا يعني أنك شرير ، وأمروا بالحراس فألقوني خارجًا وجرت كلاب الحراسة نحو رأسه والتهموها بشراهة ، بينما أمشي في الشارع صارخًا أنا شرير ، أقسم بكل شيء أنا أكثر البشر شرًا، لكن نظر الناس إلي كأنني مجذوب يهرول عاريًا في الشوارع، بينما تفوح مني رائحة نتنة.

أؤكد لكم أنني فعلت أمرًا شريرًا جدًا يستحق سجني ، لكن كما تعلمون لم يعد يسجن أحد منذ نصف قرن ، فالمجتمع ظن أنه قادر على تقويم نفسه بشكل فوضوي ، أترون مدينتنا الفاضلة ، أي مدينة تلك التي لا أستطيع أن أصبح فيها شريرًا إذا أردت؟!

- لم تقل ماهية ذلك السر؟!

- نعم نعم ، لقد تأثرت قليلًا، دعونا لا ننحرف عن مسار الحديث ، السر أيها السادة عبارة عن فرضية بسيطة، أنا الشرير لا أملك أي مبرر لشري ، أفعل ذلك الفعل كأي فعل عادي ، كالأكل والشرب وممارسة الجنس ، ليس هناك دافع حقيقي ، ربما كان يوجد دافع في المرة الأولى أو أتى عن طريق الخطأ ، لكن ، استمعوا جيدًا هناك دافع أكيد يجعل الشر مختلف عن الخبل ، المتعة ، المتعة الخالصة ، أن تبدأ المرة الأولى فتشعر بنشوة عارمة ، فلا تستطيع التوقف ، فعندما يسألونك لماذا تجد نفسك شريرًا، ستقول بكل ببساطة لا أدري، بالعكس أشعر أنني من الأخيار ، ففي النهاية ما قيمة البشر إذا لم يشعروا بالمتعة ، ما الذي سيفرقهم عن السكين الذي يقطع لحومهم؟!

...

يتركهم ويذهب ليجلس بعيدًا مع كلبه الضخم ، بينما يبدأون بالدخول للمقابلة واحد تلو الآخر ...

خرجوا غاضبين - جميعهم - بلا استثناء ، ينظرون نحوه ويصيح أحدهم "لقد خدعنا !"، جروا نحوه وأمسك به أضخمهم بقوة صائحًا "لقد خدعتنا".

- أعزائي لم أخدعكم ، أنا حتى لم أدخل بعد خلف ذلك الباب، إلى المقابلة!

من فضلك دعني ، بينما اشتدت زمجرة كلبه الضخم الذي كاد أن ينهش يد الرجل، لكن صاحبه أمره بالتوقف.

تركوه يذهب بينما أمرهم الحراس بالرحيل من هنا وإلا اضطروا لاستخدام القوة معهم.

- عظيم عظيم ، ما فعلته كان أمرًا شريرًا حقًا ، لقد رأينا كل ما حدث.

- كانت وجبة سهلة الإعداد أيها السادة.

- أخبرنا إذا، هل أنت شرير؟

- وهل أنتم فلاسفة؟!

- أجب على السؤال بوضوح.

- لو اغتصبت ابنتك الصغيرة ثم قتلتها فلن تسألني ذلك السؤال ، هل أنا مريض نفسي أم مجرم شرير أم خير تائه يسعى للانتقام من العالم ، لا يهم أيها السادة ، استمتعت كثيرًا بالعبث ، علمتني الحياة أن كل شيء يتغير، فدعونا نكتفي باللحظة الراهنة، كاستعدادي التام لقتلكم جميعًا.

ينظر إلى كلبه الضخم: "نم يا صغيري هنا ولا تنبح".

يتحسس نظارته السوداء ويخرج مستندًا إلى الحائط ، ينظر نحوهم نظرة أخيرة.

- الشر أيها السادة لا يحتاج إلى أشرار كي يحدث ... أيها الحراس، فليساعدني أحدكم للخروج من هنا!

يسير على مهل بينما يزين ضحكته كل الشر ، انفجار ، أشلاء ... – آسف يا صديقي لكنك استحققت الموت.

❁❁

الشيخ عياط

ما تبقى من الوليمة التي أعدها أهل القرية للزائر الجديد كان يكفي أن يطعم عشرة أفراد يعتصر الجوع بطونهم ، لكن ما الذي سبب عدم القضاء على الوليمة بشكل كامل كما كان من المفترض حدوثه شيء بسيط ، لم يخطر على بال أحد أن شيئًا كهذا يمكنه أن ينهي لحظة سعيدة من الاكتمال ، شيء لو حدث في أي يوم آخر لكان من الممكن تجاوزه بالإهمال المتعمد لأنه لم يكن على أحد أن يصدق أن شيء ما كذلك يمكنه الحدوث ولو حدث فعلًا فهو أمر ربما يكون عاديًا، لكنه لم يحدث في تلك البلدة فقط قبل ذلك ، ولكن أن تلد البقرة في يوم وصول الشيخ ، الذي إذا سار في الأرض خلف وراءه حكايات لا يمكن تصديقها ، ولم تكن ولادة سهلة فكلما ظنوا أنها قد انتهت من طلقها ، خرج طفل جديد من رحمها ، أربعة ، ذكور وإناث ، صحاح ، لا عيب فيهم ، ولم يكن السبب في ترك الوليمة هو السماع بالخبر ، بل كان تركها لأن صاحب البقرة أتى إليه وطلب منه أن يبارك بقرته التي توشك على

الولادة ، وكيف له أن يرفض طلبًا كذلك ، سار معه وتبعه عشرات الأفراد ، فما أن لمس بطنها حتى بدأت في لفظ صغارها واحدًا تلو الآخر.

عندها كان يقف المئات من البلدة خارج الحظيرة يهللون بينما تزغرد النساء ، حتى بات كأنه عرس كبير ، وجرى الأطفال يزفون الخبر في القرية ، حلت البركة في بيت عم مأمون ، حلت البركة في بقرة عم مأمون ، بركاتك يا شيخ عياط ، ولم يكن حظ الشيخ عياط شيئًا يمكن المزاح فيه ، فهو كان رجلًا ذا بصيرة منذ نعومة أظفاره ، حتى نصبه أهالي قريته مجلس الرجال ، ولم يخط شاربه الأخضر طريقه فوق فمه الصغير بعد ، بينما سنه المفقود بلا رجعة منذ طفولته يمثل علامة واضحة أنه قام بتضحيات كثيرة في حياته ، كان يخجل من الضحك وهو صغير ، ولكن عندما اكتسب لقب المشيخة لم يتوقف عن الضحك ، وعندما يريد أن يتفاخر بين مريديه ، يفتح فمه ويقول: "انظروا إلى ذلك الظلام في فمي ، ترونه فقط لأنه محاط بالأبيض ، تلك هي الخطيئة التي توقع بالخيرين في ظلمات العذاب ، وما أشد من عذاب الروح ، بين البشر الذين لا يصمتون ولا يسكتون عن عيوب الآخرين".

وفي بياض أسنانه قصة ، فقد كان يسير على وصفة خاصة تأكل من أسنانه حتى أصبحت في سنه الكبير هذا شفافة كالزجاج ، "الشيخ يتألم كثيرًا لأنه يضحي لأجلكم ، أنتم تأخذون من روحه" ، هكذا برر مساعده شعور الشيخ بألم الأسنان ، ولم يرجع أحد ألمه لخوفه من الأطباء ، ثم ما الذي يمكن أن يحدث لو أن الشيخ صاحب الكرامات ذهب إلى طبيب يسأله الشفاء ، هل سيظل الناس يسألونه البركة والشفاء أم لا.

منذ طفولته لم يكن طالبًا مجتهدًا ، لكنه على الرغم من ذلك كان قادرًا على حفظ كل وصفات العطارين بعد أن رأى جدته التي كانت تمتلك وحدها دولابًا كاملًا ملئ بصنوف غريبة من العلاجات الطبيعية ، كل ما كان ينقصه بعض آيات من القرآن ، والكثير من المهارة ، المهارة كانت هبته الأولى ، فهو يستطيع أن يرى المرض في أجساد الآخرين ، وكان سيد الجدال بلا منازع ، وهنا لم يتعثر في تلك القرية لأنه لم يجد عاقلًا رشيدًا واحدًا ، في طفولته نظر لجدته وقال: "أنت محمومة يا جدة".

كانت تتظاهر بأنها سليمة وهو رأى فيها الألم ، رغم أن جدته ماتت من ذلك المرض لأنها أصرت على وصفاتها

الخاصة بدلًا من الذهاب للطبيب ، وذلك لم يدفعه للدراسة دفعًا كما يحدث في القصص العادية ، بل كان ينظر إلى بدايات الألم ويوزع الوصفات المجانية هنا وهناك ، ينظر إلى المرأة فيخبرها بحملها ، ربما كان على خطأ لكنه يركن إلى المنطق وقوة الاحتمالات ، لن يتسبب فارق أسابيع في إثارة الشكوك.

انهمك الشيخ عياط في مباركة أهل القرية ، بينما يأتيه في مكان ضيافته صنوف من الطعام والشراب والملابس والأقمشة ، أكثر العطايا غرابة كانت بطاقات شحن للهاتف المحمول ، معروف أن رحلات الشيخ عياط قصيرة الأمد ، فهو لا يجلس في أي قرية أكثر من ليلتين ، بينما ألح عليه عم مأمون أن يبقى لسبوع أبقاره الصغار ، فكان عليه أن يستجيب وإلا كيف يكون الكريم الذي يهب من ملك الكريم.

مرت ليلتان على نفس الحال ، يأتي الناس من القرية والقرى المجاورة يهبون الشيخ عطاياهم ويهبهم مباركته ، حتى جاء الخبر الموحش في اليوم الثالث.

يجري مأمون في الليل رافعًا طرف جلبابه وعاضًا عليه بأسنانه:

- يا شيخ الحقني يا شيخ.

- ماذا حدث يا مأمون؟!

- مات أحد الصغار ، ذهبت لأطل عليهم بعد صلاة العشاء فوجدته ملقى في جانب الحظيرة، لا يتحرك قاطع النفس.

- امسك على البقية يا مأمون وأغلق عليهم حظيرتك وباركهم بالمعوذات.

- أنا العاصي يا شيخ أباركهم؟!

- الكريم ينظر للقلوب يا مأمون.

...

وفي الليلة التالية مات صغير آخر ، وفي الليلة التي تليها مات صغير ولم يبق سوى بقرة صغيرة واحدة ، ومأمون يتلو المعوذات ولا يكف عن الاستغفار ، والشيخ يجلس في بيت مأمون يدعو لبقرته الوحيدة الباقية أن تبقى على قيد الحياة ، بينما بدأ الهمس يتسرب في طرقات القرية ، الشيخ عياط لم يمنع الموت عن بقرات مأمون.

- يا شيخ عياط ، الناس تهمس في القرية ، الشك ينتشر ، يجب أن نتحرك الليلة!

- لا يمكننا الرحيل يا سِعدة فالباب كما ترى مغلق بالقفل.

قالها الشيخ بينما يطل من شرفة الحجرة المحبوس فيها منذ يومين.

يأتي مأمون للشيخ عياط ويضع له بعض الطعام ويخبره أنه هنا حتى يضمن بقاء البقرة الباقية.

- لكن يا مأمون لا يمكن أن تأخذني رهينة ، من تتحدى يا مأمون ... أتتحدى الله يا مأمون؟!

- أنت قلت يا شيخنا أنك ستباركها ، فأين ذهبت البركة بينما يقع الصغار كل يوم بلا رجعة!

- كان رزقك بقرة واحدة ، أعطاك الله أربعة وأخذ منك ثلاثة، ما الضرر في ذلك؟!

- سأظل فقيرًا إلى متى يا شيخنا؟ ! أريد أن أبني سقفًا إسمنتيًا، انظر إلى ذلك الخشب، لقد أصابته العفونة.

- إن لم تصبر فلن تجد ، وإن لم تجد فقد صبرت ، وبشر الصابرين يا مأمون.

- وكراماتك يا شيخ عياط !

- أنا من جند الله، أعطي ما أعطاني فقط يا مأمون.

- إذا فأعطني كل ما أهداك أهل القرى لأبيعه وأبني لي سقفًا.

- أتظن أني سآخذ كل ذلك لنفسي ، كل ذلك يذهب لبطون مئات العباد.

- يجوز.

- احفظ لسانك يا مأمون والزم حدودك ، أنا الشيخ عياط ، كلمتي شرف.

أوقف حديثهم صوت صراخ زوجته الباكي ، كأنها تبكي ميتًا عزيزًا:

- البقرة يا مأمون، البقرة ماتت يا مأمون.

- ما تزال الأم باقية لا تحزني.

- الأم ماتت يا مأمون ماتت.

وقف عياط مكانه بغضب قائلا:

- هذا هو جزاء من اعترض على أمر الله، افتح الباب يا مأمون وإلا لن ترى خيرًا في حياتك بعد اليوم.

يأتي مساعد الشيخ بسيارة محملة بالطعام والشراب ، يركب الشيخ السيارة أمام بيت مأمون الذي يبكي رزقه الذي ذهب في أسبوع واحد، صارخًا في زوجته:

- احضري السكين لنذبح الصغيرة الباقية.

❁❁

انتظري

انظري ، عيناي منتفختان ، أشعر كأن أحدًا لكمني بقوة ، لكمتين متساويتين في القوة والاتجاه والسرعة ، أنا لا أراكِ بوضوح ، فعيناي تدمعان من الألم ، لا أستطيع أن أجعلهما تتوقفان عن البكاء ولا أستطيع أن أبكي من الألم ، فعندما حاولت أن أغلق عيني تألمت أكثر ، أقسم لو أن هناك من سبب ذلك الورم في وجهي بأي وسيلة لأقتله ، حتمًا ستساعدينني فأنا بالكاد أرى الضوء الذي أمامي ، لن تتركيني وحيدًا ... أليس كذلك ؟ عديني فأنا لا أؤمن أنكِ ستبقين هنا إلى جانبي.

لماذا لا أستطيع أن أؤمن بكِ؟

أتتذكرين كيف رأيتك أول مرة؟

- صدفة!

- لا، ذلك أبعد احتمال ، الفرضية الحقيقية أنني كنت واثقًا من لقائك ، كرغبتي الواثقة في الحب ، طبعًا عندما أدركت أن هناك شيء اسمه حب ، لأنه كان يختبئ مني كلما لاحظته يتحرك حولي ، كجرذ صغير ... آسف ، لا يحق لي

تسميته بالجرذ ، هو أرقى من ذلك ، لكن أنظرتِ يومًا إلى فأر صغير ، لو فعلتِ ستعلمين كم هو جميل وذكي ، رأيت فيديو مرة لفأر يأتي لصديقته المريضة بمناديل ورقية.

أتذكر فستانك جيدًا، يشبه الخشب المرسوم عليه بالنار ، كانت الورود مميزة كأنها تنبت من قلبك حتى ملأت الفستان كله ، شعرك كان حرًا فعلًا في ذلك اليوم ، من المحزن أنك تحبين الشعر الناعم ، ثم كان هناك وجهك ، لا أستطيع الحديث عنه بحرية ، فلغتك ليست بسيطة صدقيني ، لكن ما الذي يجعلني أثق في الحب ، أنت تعلمين أنه يتسرب سريعًا لو أهملنا سقايته!

...

تركته على فراشه لا يستطيع الحراك ، وبدأت تجوب الغرفة بخطى وئيدة ، تنظر إلى تفاصيل الغرفة ، تطل من الشرفة، تداعب الورود الصغيرة على السور.

- يبدو أنك لم تغير شيئًا هنا منذ رحيلي!

- لم أملك مالًا كافيًا لتغيير أي شيء.

- لم تمتنع عن الشراب؟

- من المؤكد أن إجابتي هي "لا"، ولا تنظري إلي هكذا ، أجلس وحدي كثيرًا هنا!

- لو لم تشرب لما ضربك أحدهم بقوة.

- لم يضربني أحد، أقسم لكِ، فأنا لم أشرب منذ أسبوع.

- يجب أن يراك طبيب.

- لا حاجة لذلك.

- خذ تلك النقود.

- لهذا لا أؤمن بكِ ، كيف سأحتضن النقود؟ ! هي لا تسمع ولا تعي ولا تنطق!

- فقط خذها.

- اسمعي ، اتصلت بكِ كي تساعدينني في سقاية الورود في الشرفة، فأنا لا أستطيع أن أتحرك، لا أريد مالًا.

- ليس لديّ وقت كافٍ لذلك.

- ألا أستحق بعض الوقت؟!

- اسمع، خذ النقود، يجب أن أذهب الآن.

- انتظري.

لا تلتفت له ، تغلق باب الحجرة ، يسمع صوت الفازة وهي تتحطم على الأرض، ثم صوت باب الشقة بعد قليل!

- انتظري، فأنا لا أرى أي شيء.

❁❁

تحفة من البلور

يدعون أول تجربة ناجحة للنجوم الصاعدة "باكورة الأعمال " وأنا أعددت تحفتي الأولى ، باكورة من البلور ، صعودي لا يمكن مقارنة أي صعود آخر به ، إلا لو قرر أحدهم أن يقارن بينه وبين النمو المرعب للرغبة في القتال والاغتصاب في الحرب العالمية الثانية ، رفع الإنسان رايته وأعلن فشله في أن يصبح كائنًا مختلفًا ، أنا هو ذلك الإنسان ، رغم أن تحفتي لم تنتهك حرمة جسد أي كائن حي في ذلك العالم ، إلا أن شعوري بروحي يتجاوز شعور من علق قرية كاملة من أرجلها وقطع ألسنتهم وتركهم يقطرون دمهم حتى الموت ، محاولة إحياء روحي لا بد لها من معجزة.

الآن لا يمكنني أن أدفع الإيجار ولا الفواتير ، يوشك صاحب المنزل على طردي من الشقة ، حاولت أن أتغلب على الضائقة التي استحوذت علي ، حتى أنني غضضت الطرف عن العمل بشهادتي ، غلاية كهربية وأكواب من الورق المقوى ، أصنع المشروبات الساخنة في موقف

الميكروباص ، موقف صغير ، يغطي بعض القرى القريبة من هنا ، فلا توجد مخاطرة كبيرة في افتضاح أمري ، وما هي الفضيحة؟!

عيون بشرية كانت تنظر إليك بأمل الموقرين فاشتعلت بنار الاحتقار ، أشم رائحة جسدي النتنة ، هم يشمونها واضحة فيبصقون عليّ ، عندها لا أشعر بالألم ، أعتذر كثيرًا حتى يبتعدون عني ، الضعف لا يغري كل الأشرار ، هم بشكل ما أشفقوا علي بعدم المغالاة في إهانتي ، حتمًا توجد مهانة أعظم من ذلك ، فعندما جئت أول مرة إلى ذلك الموقف ، حاصروني ، ولا أستطيع الإجابة عن سؤال "من هؤلاء الذين حاصروك؟ !" لأني لا أعرف ، ظهروا فجأة ، ضربوني بقوة ، وأعطوني ذلك الجرح في وجهي ، قالوا عندها الآن أصبحت تحت قبضتنا ، لم أدرك لمن تلك القبضة حتى الآن، لكنني وجدت إخوة في المهانة ، عندما قابلته لأول مرة أدركت أنه يراني كما أراه.

وقفت أمامه وقلت:

ـ أنت!

فنظر إلي بعين قلقة ، عينه كانت معلقة بأثر الجرح الذي وشم وجهي:

- تملك نفس الجرح مثلي!

فلم يرد ...

- هم فعلوا بك، شوهوك، أنا أيضًا!

- هششششش، اصمت.

- هل هناك آخرون مثلنا؟ هل تعلم من يملك القبضة؟ القبضة ... تلك التي أصبحنا تحتها صاغرين؟!

- ابتعد عن طريقي.

غاضبًا دفعني من طريقه ، حاولت أن أمنعه ، فكاد أن يلكمني بقوة ، لكن كان هناك من ينظر نحونا ، يراقبنا ، ينتظر هفوة منها ، القبضة ، توقفت قبضته الضئيلة أمام وجهي ، تركني وذهب مسرعًا بعيدًا عني ، لم أجد لدي شجاعة كفاية للحاق به تلك المرة ، توجهت نحو مفرشتي الصغيرة بجانب عامود الإنارة ، فأنا أسرق الكهرباء خلسة، فالقبضة كما يقولون "تحمينا".

سأترك سكني اليوم وأعيش في الموقف ، هنا القبضة ستحميني ، يوجد حمام عام وتوجد أكشاك فارغة ، كل ما أحتاجه هو بطانية ثقيلة ، لا خوف من السرقات فأنا لا أملك أي شيء.

- أنت، أنت.

ـ أنا؟!

ـ اركب بسرعة.

لم أكن سأنصاع لأمره لولا علامة المأسورين بالقبضة على وجهه، نحن إخوة، هنا في ذلك الموقف.

سار بالتوكتوك حتى ابتعد عن كل المباني ، أرض زراعية تضيئها المركبة مع بصيص ضوء يرسله عمود إنارة بعيد ، وومضات إضاءة من السيارات التي تقطع الطريق السريع ، كان ينتظرنا هناك عدد كبير من الناس ، رجال ونساء ، صغاروعجائز ، أمسكوا بي ، كبلوني ، ضربوني حتى فقدت الوعي ، أفقت وأنا أصرخ من الألم ، جرح آخر في خدي الآخر ، الآن صرت مميزًا، لا أدري السبب ، كانت الإضاءة تعميني.

صاح صوت عجوز ، يبدو أنك تفكر في الخروج على القبضة ، لا تحاول أن تنكر ، أنت تملك ذلك الشعور حقًا، لا يمكننا المخاطرة بتحمل مسئولية طيشك ، تلك العلامة تجعلنا نتبرأ منك ، نحن الإخوة التي تظلنا قبضته ، خطأ واحد منك ثمنه رأسك ، رأسك أنت وحدك ، وللمرة الأولى والأخيرة ، لم يعد لك إخوة في ذلك العالم ... لكمة أخرى أيقظتني في الموقف ، لم أكن على استعداد لقبول ذلك

الاستبعاد ، لم أكن أريد أن أتجاوز قبضته التي تحميني ، لكن أشعر بالغضب، ذلك السكين سيقطع الجرحين.

صليبان حديثا التكوين يزينان وجهي التعيس ، ذلك الشخص لا يملك هذا المساء إخوة ولا تحميه قبضة - الذي لا اسم له - ربما كان علي أن أحاول بشكل آخر ، فتحفتي تلك لم تكتمل.

❁❁

الفهرس

إهداء -- 1
العشاء الأخير ------------------------------------ 3
أم السيد --------------------------------------- 12
باب اللوم --------------------------------------- 19
ثلاثة جدران والسماء----------------------------- 35
حلم-- 38
ربع الحظ--------------------------------------- 62
سباق الحمير ------------------------------------ 71
ضحكات قهرية ----------------------------------- 77
ضربة على الرأس-------------------------------- 80
عقار السعادة ------------------------------------ 90
علموني الصبر----------------------------------- 98
فخري الدنيوي---------------------------------- 102
في القرية الصامت أهلها------------------------ 117
قاتل القدر------------------------------------- 122
من ماء عكر----------------------------------- 127
مخبز العزبة----------------------------------- 131
الشر -- 137
الشيخ عياط ----------------------------------- 142
انتظري --------------------------------------- 149
تحفة من البلور--------------------------------- 152
الفهرس --------------------------------------- 157